# الأزمة

## أسبوعان في آيار (مايو)

في مواجهة إدانات الأمم المتحدة والدول العربية ومقاطعة السفراء الغربيين، أكدت إسرائيل على استقلاليتها. فقد خُفِّضَ العرض العسكري إلى ست وعشرين دقيقة فقط، ومشاركة ١٦٠٠ جندي، وعدد قليل من المركبات. ووصفه الكولونيل ليور (Lior) ساخراً بأنه «مسيرة كشافة» لقد أثار قرار إشكول تخفيض الاحتفالات أكثر قدر ممكن نقداً مريراً من خصومه، وعلى الأخص من بن غوريون الذي اتهمه بالانصياع إلى الضغط العالمي. ومع ذلك خرج ٢٠٠,٠٠٠ متفرج احتشدوا تحت نجمة داود المضاءة المتألقة من على قمة جبل المكبر (سكوبس «Scopus»)، ولم يكن يدري بوجود آلاف من الجنود المصريين يتدفقون إلى سيناء جنوب البلاد سوى قلة من المحتفلين.

وصلت تقارير مختارة عن الحشد من وكالات أنباء غربية إلى رابين في مساء اليوم السابق في مكتب رئيس الوزراء حيث كان وإشكول وزوجتاهما يُعدان لحضور مهرجان في استاد الجامعة العبرية المجاور.

كان رد فعل إشكول الأولي منضبطاً. إذ ذكر رابين بأن عبد الناصر كان مغرماً بالاستعراضات، وأنه في أسوأ الأحوال، يعيد الآن عملية ريتاما (Retama)، مبادرة مصر المفاجئة في إعادة تسليح سيناء في العام ١٩٦٠. وافق رابين على هذا المفهوم وأصدر أوامره بمنع جميع التحركات الاستفزازية على الحدود الشمالية، وتصعيد دوريات الاستطلاع في الجنوب، ثم أسقط الموضوع. وذهب رابين وإشكول إلى استاد

الجامعة العبرية ليستمعا إلى قصيدة ناتان ألترمان التي خضعت للرقابة، وإلى أغنية جديدة ألفها نعومي تشيمر (Naomi shemer)، عنوانها «قدس الرب» التي غدت نشيداً وطنياً.

بيد أن رئيس الوزراء كان قلقاً، رغم كل الهدوء الظاهر عليه.

استمر وصول التقارير المتعلقة بالجنوب طيلة المساء أثناء حفل استقبال في بيت المليونير الفنزويللي مايلز شيروفر (Miles sherover). كانت القوات المصرية تأخذ مواقعها وفق خطة «القاهر» المعروفة تماماً لدى الإسرائيليين، وطار فوزي إلى دمشق. كانت قوات الدفاع الإسرائيلي منتشرة على طول خطوط السندان (Anvil) جاهزة لاجتثاث أي غزو من أية جبهة -وكانت الخطة تفترض وجود إنذار مسبق قبل ٤٨ ساعة- ذلك ما لم يكن إشكول واثقاً من حدوثه. وعندما سألته زوجته ميريم (Miriam) عن سبب قلقه الشديد، أجابها «ألا ترين أن حرباً ستنشب؟».

تصاعد قلقه في اليوم التالي. إذ استمع إشكول إلى رابين وهما في فندق الملك داود بانتظار العرض، وهو يقترح تعزيز الوحدات الإسرائيلية المدرعة الصغيرة في النقب، وتلغيم منطقة الحدود، واستدعاء لواء أو لواءين من الاحتياط.

كان رابين مدركا لدقة الموقف، وحذراً جداً من عبد الناصر. فقد التقاه مرَّة في نهاية حرب العام ١٩٤٨ عندما ساعد رابين في التفاوض على انسحاب الجنود المصريين المحاصرين من النقب. قال له رئيس مصر المستقبلي: «عدونا الرئيسي هو بريطانيا.. فينبغي أن نقاتل القوة الاستعمارية بدلاً من مقاتلكتم»، وأثر في الضابط الإسرائيلي الشاب. ومع ذلك عندما استلم عبد الناصر السلطة تبين أنه شخص عنيد لا يمكن التنبؤ بسلوكه. فكان على رابين أن يستعد للأسوأ.

قال رابين فيما بعد: «إن لم نقم بالرد -محدثين بذلك انطباعاً لدى المصريين بأننا لا نعلم بتحركاتهم أو راضين عنها- نكون قد أتحنا فرصة للهجوم على أسس من الهزيمة، ومن جهة أخرى، إذا ما قمنا برد مبالغ فيه فإننا نثير مخاوف العرب

من كوننا عدوانيين وبالتالي نشعل حرباً شاملة لا نريدها». شعر إشكول أن السيناريو الثاني يبدو أكثر خداعاً. ففي حين أنه وافق على استنفار من الدرجة الأولى للجيش، وعلى نقل عدد من المجموعات المدرعة إلى الجنوب، فإنه رفض استنفار الاحتياط وحشده.

ظلت الأنباء ترد من سيناء طوال بقية ذلك اليوم في أثناء إجراء مسابقة توراتية قومية، وحضور احتفال لسلاح الجو. أخبر رابين إشكول قائلاً: «تحركت فرقتان مصريتان إلى منطقتين محصّنتين في جبل لبني (Jabal Libni) وبير حسانه (Bir Hasana)؛ وكان التقدم جيد التخطيط ومنظماً». والنبأ الحسن الوحيد هو أن الفرقة المدرعة الرابعة، أفضل الفرق المصرية، كانت لم تغادر القاهرة بعد. كان رابين متاكداً من أن مناورة مصر كانت استعراضية فقط -وأكدت واشنطن هذا التقييم- ونصحت بالحذر. وافق إشكول على ذلك، ولكنه ظل قلقاً . فتساءل ماذا لو شجع تحرك عبد الناصر هذا السوريين على إطلاق المزيد من الإرهابيين؟! ماذا لو دفع السوريون عبد الناصر إلى إغلاق مضائق تيران؟. (١)

كان رئيس الوزراء يفكر في هذه الأسئلة في حين كان الدبلوماسيون الإسرائيليون يعملون على قدم وساق. إذ لم يتركوا قناة إلى عبد الناصر إلا وطرقوا أبوابها -وزارة الخارجية الأمريكية، ووزراة الخارجية البريطانية، وحتى يوتانت- لطمأنة عبد الناصر أن ليس لإسرائيل أية نية لخوض حرب، ولتحذيره من خدعة سورية. ودعي رئيس هيئة المراقبين الدوليين التابعين للأمم المتحدة -أود بول (Odd Bull)- ليقوم بجولة في الشمال ويتأكد من عدم وجود حشود لجيش الدفاع الإسرائيلي، وفي الوقت نفسه أعطيت تعليمات للبعثات الإسرائيلية في الخارج أن توضح خطورة التحركات المصرية للبلدان المضيفة. حاول رئيس الموساد مئير أميت (Mair Amit) تجديد الاتصالات مع الجنرال عزم الدين محمود خليل، الذي كان ذات يوم ضابط ارتباط في لجنة الهدنة المصرية - الإسرائيلية المشتركة. كما جرى الاتصال سراً باللبنانين وأحيطوا علما بخطورة الانفجار الرهيب المحتمل إذا استمرت هجمات الفدائيين. (٢)

أوضح رابين بأن أياً من هذه الخطوات لا يمكن أن تكون بديلاً عن استدعاء بعض الاحتياط على الأقل. قالت الإذاعة المصرية مبتهجة في أثناء تقدم المشاة المصريين بأعداد متزايدة: «قواتنا على أتم استعداد للحرب». وحث عبد الناصر في بيان حول يوم فلسطين - وهو يوم حزن في جميع أنحاء البلاد العربية، راثيا استقلال إسرائيل، قائلاً: «أيها الإخوة، من واجبنا أن نُعِدَّ أنفسنا للمعركة النهائية في فلسطين». في حين أن رابين لم يصدق أن عبد الناصر كان يريد الحرب، وكان الزخم يتعاظم بحيث يحطم قوة الردع الإسرائيلية إلى الحد الذي يشعر فيه العرب بأنهم أحرار في شن الهجوم. (٣)

بدا أن ذلك الخطر قد أخذ يتعاظم بسرعة بين ليلتين ١٥و ١٦ مايو. كانت تقديرات جيش الدفاع الإسرائيلي الأولية للحشد المصري هي حشد الفرقة الخامسة بالإضافة إلى ٣٠,٠٠٠ جندي مصري تمركزوا في سيناء و ١٠,٠٠٠ رجل من جيش التحرير الفلسطيني الموجودين في غزة. ثم قفزت الأعداد ثلاثة أضعاف . إذ عبرت الفرقتان الثانية والسابعة، مشاة، القناة، ولم تكن الفرقة المدرعة السادسة بعيدة عنها وراءها. ومن أبرز التحركات عبور الفرقة الرابعة بقيادة اللواء صدقي الغول القناة وتمركزها في بير الثمادا (Bir al- thamada). كل وحدة من هذه الوحدات كانت تتألف من ١٥,٠٠٠ جندي، وحوالي ١٠٠ دبابة من طراز T-, T٥٥-٥٤، و١٠٠ ناقلة جنود مصفحة، وسلسلة من المدفعية الروسية: هاوتزرات، هاونات ثقيلة، صواريخ كاتيوشا، مدافع مضادة للدرع من طراز ١٠٠-SU بالإضافة إلى كميات هائلة من الذخيرة وطائرات ميغ ١٧-ميغ ٢١ المقاتلة وقذائف غازات سامة- كما يعتقد جيش الدفاع الإسرائيلي. (٤)

احتار رابين. إذ إن الانتشار المصري، رغم أنه مازال دفاعيا مع تمركز المدرعات والجنود، قد فاق حدود مجرد قوة استعراضية. كما أن تحرك الفرقة الرابعة، ونقل قاذفات القنابل الثقيلة إلى الأمام، إلى قاعدة بيرالثا مادا، يعني أن العدو يستعد لغزو النقب أو لقصف مفاعل ديمونة النووي، كان توجه القاهرة العام توجهاً

عدوانياً. إذا ما حاولت إسرائيل الآن أن تشعل المنطقة ناراً فإن إسرائيل نفسها ستدمر كليا في هذه النار، جالبة نهاية هذه القاعدة العدوانية العنصرية. «ومثل هذه النغمة ترددت في دمشق»: «لن تنتهي حرب التحرير إلا بإزالة إسرائيل» وذكرت التقارير أن جنوداً سوريين كانوا يتقدمون كذلك، ولو أن إسرائيل لا تستطيع مضاهاة حشدهم بدون إثبات أهليتها لمضاهاة الحشد المصري. كانت أيدي جيش الدفاع الإسرائيلي مقيدة: ففتح تستطيع شن هجوم في أي وقت تشاء.

قال رابين لهيئة أركان الجيش الإسرائيلي في ١٧ مايو: «تواجه إسرائيل وضعاً جديداً، فعبد الناصر لا يبادر بشيء أبداً - بل يقوم بردود أفعال تورطه في إشكالات، كما حدث له في اليمن». كان لا بد من نقل قوات إلى الحدود الجنوبية وتعزيز الدفاعات الجوية حول مفاعل ديمونة، ولكن يجب أن يتم ذلك بهدوء وتحت جنح ظلام الليل، إن أمكن. ورجا رابين إشكول فيما بعد عندما التقاه في حفل استقبال لشخصية إفريقية رفيعة المستوى، أن يستدعي لواءين على الأقل، أي حوالي ١٨٠٠٠ رجل. وافق إشكول على مضض، ونصح رابين بضرورة الإحجام عن أي تصرف استفزازي، قائلاً: «هذا الأسبوع مفعم بالتهديدات والتحذيرات» لأن اللحظة كانت حاسمة، كما كتب الكولونيل ليور في مذكراته قائلاً: «كان واضحاً لنا جميعاً أننا وصلنا إلى نقطة لا رجعة فيها. فقد ألقيت القرعة». (٥)

## مصر تفكر ملياً

كان السوريون في صراعهم مع مصر يهددون بإشعال حرب على إسرائيل. ومن ثم، عندما تردد إسرائيل بتأكيد وجودها في المناطق المنزوعة السلاح يطلق السوريون العنان لهجمات الفدائيين التي تستفز إسرائيل للقيام بعمل انتقامي. وهذا يعني، كما قال السوفيات لمصر: غزواً. وهكذا كان الحشد الغريب الذي جلب القوات المصرية إلى سيناء. ومع ذلك فإن تلك النتيجة ستولد بدورها سلسلة من الأحداث طالما أن القادة المصريين يفكرون في ما سيفعلونه بهذه القوات: أين يوضّعونها وكيف يسيطرون عليها، وهل ستبقى في سيناء إلى الأبد.

كان الجنرال محمد فوزي الصارم، المتزمت قانونيا، على رأس الأكاديمية العسكرية المصرية لمدة ١٧ عاما قبل أن يعينه عبد الناصر الذي كان زميله في الدراسة رئيساً لهيئة الأركان العامة. لم يكن هذا التعيين مستنداً إلى براعته بقدر ما كان له علاقة بولائه الثابت للرئيس الذي رأى فيه وسيلة -ولو أنها ضعيفة- للحد من سلطة عامر.

حفَّزت هذه الثقة نفسها عبد الناصر ليرسل فوزي إلى دمشق التي وصلها في ١٤ مايو. فوجد العاصمة في حالة هيجان شديد - ليس بسبب الإسرائيليين، بل بسبب مقالة مناهضة للإسلام نشرت في مجلة «جيش الشعب» العسكرية قال فيها كاتبها: «ليس الله سوى دمية محنَّطة في متحف التاريخ». وعلى الرغم من مسارعة النظام إلى استنكار ذلك ووصف الأمر بأنه مؤامرة إمبريالية، وحكم على كاتبها بالسجن مدى الحياة، فإن ٢٠,٠٠٠ محتج خرجوا إلى الشوارع.

ومما فاقم هذا الغليان التوترات المتجددة بين الأجنحة المتنافسة في مجموعة السلطة، وتعاظم استياء التجار من مصادرة الحكومة لممتلكاتهم.

وكان السفير الأمريكي سميثي (Smythe) يراقب الأحداث ساخراً وعلّق قائلاً: «إن استمرار مثل هذه الآليات في حين تتعرض البلاد، حسب زعم القادة، إلى خطر خارجي، يُعد سمة من سمات المجتمع في سوريا الحالية». (٦)

هناك أمر واحد لم يجده فوزي هو دليل على تحركات غير عادية للجيش الإسرائيلي. التقى مع رئيس الأركان السوري أحمد سويداني ودرسا بصورة دقيقة الصور الجوية التي التقطت لمنطقة الحدود في اليوم السابق. ثم قام بمسح المنطقة بنفسه على متن طائرة خاصة.

لم يشاهد ما يدل على وجود حشود لجيش الدفاع الإسرائيلي في أي مكان. حتى إن الجيش السوري لم يكن مستنفراً.

قدم فوري تقريراً بما وجده إلى الرئيس عبد الناصر: «لا شيء هناك، لا حشود عسكرية، لا شيء». «ووصل للرئيس تقرير مماثل من رئيس المخابرات العسكرية المصرية، الفريق محمد أحمد صادق الذي أرسل عدداً من العرب الإسرائيلين لاستشكاف الجليل الشمالي. واستخلص صادق قائلاً: «لا توجد حشود عسكرية هناك. وليس هناك أيُّ تعليل تكتيكي او استراتيجي لمثل هذه الحشود».

أبدت السفارة الأمريكية في القاهرة والمخابرات المركزية الأمريكية (CIA) هذه النتائج. ومن بين المراقبين الأجانب لم يصدق أحد أن إسرائيل كانت على وشك القيام بغزو سوى الجنرال بل (Bull) الذي قال: «ليس لدينا تقارير حتى الآن عن أية حشود»، ولكنه أردف محذراً»: بيد أن إسرائيل لا تحشد كل قواتها في منطقة واحدة لكي تقوم بهجوم». (٧)

لم يكن يعني تقرير فوزي سوى أن الإنذار السوفياتي كان كاذبا، ومع ذلك فضل الرئيس المصري أن يغض النظر عن هذه التقارير التي تنفي وجود الحشود، ويتابع الأمور وكأن الأسرائيليين كانوا، حقاً، على وشك الهجوم. (٨) لم يكن من الصعب اكتشاف الأسباب. أولاً: كان قسم كبير من الجيش قد أصبح في سيناء، واستدعاؤه للعودة سوف يكون إهانة وإذلالاً لعبد الناصر في وقت لا يستطيع تحمل مزيد من الإهانات. والاستمرار في حشد قواته، من ناحية أخرى، يعزز وضعه. إذ كانت ردود الفعل على ذلك التحرك في الوطن العربي تتسم بالحماس والنشوة. مضت سنوات لم يُحيَّا عبد الناصر مثلما حُيّي في ذلك الوقت، وأخيراً يعد غياب أي دليل على وجود تهديد لسوريا، نبأ ساراً يُرحَّب به، ومصر تستطيع إعادة، عسكرة سيناء وتجني ثمار ذلك، دونما حاجة إلى المجازفة بخوض حرب.

يبدو أن الوضع لم يكن عبثاً ولم يذهب سدى، ليس فقط لدى عبد الناصر بل أثار عامر كذلك. إذ عندما تلقى صورة الوضع الحقيقي من فوزي، لم يبد أي رد فعل ولهذا كتب فوزي في مذاكراته قائلاً: «بدأت أعتقد أن مسألة الحشود الإسرائيلية، من وجهة نظر عامر، لم تكن هي السبب الوحيد الرئيسي لاستنفار القوات المصرية ونشرها بهذه السرعة».

كان السبب كذلك، هو إيجاد فرصة اخرى لتوسيع نطاق سلطة المشير. إذ سرعان ما انتهز الفرصة لتعيين صنائعه في مواقع عملياتيه جوهرية. في طليعة هؤلاء كان اللواء عبد المحسن كامل ومرتجى البالغ من العمر ٥٩ عاماً الذي عينه رئيساً لهيئة أركان القوات البرية وهو منصب ابتكره عامر في العام ١٩٦٤ ليتجاوز بفضله فوزي رئيس هيئة الأركان العامة.

فأصبح مرتجى الذي كان مفوضاً سياسيا في اليمن ولا يتمتع بأية خبرة عملياتية ميدانية، رئيساً لجميع القوات البرية في سيناء. وعين تحت إمرته الجنرال أحمد إسماعيل علي قائد الجبهة الشرقية، الذي يعمل بإمرته ١٢ قائد فرقة ولواء. وبتعيين صدقي محمود قائداً لسلاح الجو، والاميرال عزت قائداً لسلاح البحرية منذ العام ١٩٥٣ اللذين كانا مسؤولين شخصياً أمامه، أحكم عامر قبضته على الجيش كله. قال لمرتجى: «يمكنك أن تكون رئيس هيئة أركاني ولا علاقة لنا بالقيادات العليا». (٩)

لتحقيق أهداف عامر السياسية لا يكفي تعيين إمَّعات له في المواقع الحساسة الجوهرية، بل يتطلب الأمر محو عار ال ١٩٥٦ وذلك بفضل قيادة مصر إلى النصر. ولكن المشير لا يستطيع المبادرة بالهجوم على إسرائيل طالما أن الجيش يلتزم بخطة «القاهرة». إذ كانت هذه الخطة التي ابتكرها السوفيات في العام ١٩٦٦ تشترط وجود ثلاثة خطوط عميقة من الاستحقاقات (الخنادق) على المحور الشمالي الجنوبي لسيناء، الخط الأول من رفح إلى «أبو عجليه» كان خطاً دفاعياً ضعيفاً يستخدم لإغراء الإسرائيليين كي يتقدموا للقيام بهجوم أمامي؛ ولدى تقدمهم سوف يجدون أنفسهم في أعماق الصحراء، مقطوعين عن خطوط الإمداد وفي مواجهة الخط الثاني -الستار- المحصَّن تحصيناً كثيفاً ويمتد عبر مثلث العريش، جبل لبني، وبير حسَّان. ولدى تحطم المدرعات والمشاة الإسرائيلية تصبح فريسة لهجوم معاكس من الخط الثاني بدعم من قوات الخط الثالث الموجودة في ممري المتلا والجدي حيث مهمتها حماية التقدم نحو القنال. تبلغ استراتيجية «الدرع والسيف» هذه ذروتها في الهجوم الشامل اعتماداً على الاحتياط التكتيكي والاستراتيجي الذي سوف ينقل المعركة إلى أرض العدو ويضرب المناطق الحيوية فيها». (١٠)

كان من المقرر إنجاز منشآت خطة «القاهرة» وبنيتها التحتية بحلول العام ١٩٦٧، وكان عامر قد استبدل بالضباط المطلعين على الخطة ضباطاً آخرين مدينين له بالفضل. إضافة إلى أن أحد التقارير العسكرية، في ديسمبر من العام ١٩٦٦، قد نبَّه إلى أن خطة القاهرة لا يمكن تنفيذها مادامت أعداد كبيرة من قوات المجابهة المصرية موجودة في اليمن. وفي النصف الأول من العام ١٩٦٧ شكت هيئة الأركان العامة من عجز الميزانية اللازمة للدفاع عن سيناء، ونصحت بقوة التوقف عن المزيد من الحشودات العسكرية. وصرح الجنرال فوزي قائلاً: «لن تكون هناك حرب مع إسرائيل: فالميزانية، ببساطة، لا تسمح بذلك».

كل هذه التحذيرات والنصائح لم تردع المشير عامر إذ كان يعتقد أن الجيش المصري، ليس قادراً على صد الضربة الأولى الإسرائيلية فحسب، بل هو قادر على شن هجوم. فبموجب خطته «الأسد» تقوم وحدات مشتركة من المشاة والمدرعات والفدائيين باختراق إسرائيل وتعبر النقب إلى الحدود الأردنية فاصلة رأس إيلات بأكمله. ويقوم الأسطول المصري بمهاجمة الميناء من الجنوب ويحول دون وصول أية تعزيزات من البحر. وكانت هناك خطط تقوم بموجبها المدرعات بالاندفاع شرقاً على طول الساحل الإسرائيلي ويقوم سلاح الجو بموجب خطتي «الفهد» و«السهم» بقصف المستوطنات الإسرائيلية المواجهة لغزة. (١١)

صدر أمر ميداني في ١٤ مايو، رقم ٦٧-٥ نقل القواعد الجوية إلى خطوط متقدمة في سيناء. وكانت أهدافها النوعية هي قصف -منشآت المطارات والموانئ، ومحطات الطاقة، ومحطات الرادار- في غضون، ١٦ ساعة منذ لحظة تلقي كلمة السر «أسد». كما وزعت صور جوية للمنطقة، معظمها التقط أثناء الحرب العالمية الثانية. وصف هشام مصطفى حسين، أحد الطيارين ضغطه على قائده ليجيبه فيما إذا كان الهدف هو مجرد الهجوم لتدمير إيلات أو الدولة اليهودية بصورة عامة، على النحو التالي: «بدت على وجه قائد السرب نظرة انزعاج وقلق».

وقال: علينا أن ننفذ المطلوب بدون أسئلة، وقال: إنه من المهم أن نثق بالقيادة العليا لديها خطة عملياتية واضحة، وأنه لا يستطيع الإيضاح أكثر لأسباب أمنية ولضرورات السرية». (١٢)

كان ضم أراضي النقب كجسر إلى مصر، وإزالة ميناء إيلات يشكلان هدفين مصريين قديمين. دعا هيكل في افتتاحيته الأهرام «إلى احتلال إيلات كخطوة نحو تدمير إسرائيل» ولكن قوات الطوارئ الدولية كانت تحبط كل محاولة لاحتلال أجزاء جنوبية من إسرائيل.

وتابع القول: «وللسبب نفسه أراد عامر حل قوة الطوارئ الدولية وتفكيكها وليس فقط إبعادها عن الحدود، كما كان عبد الناصر يفضل. فقد خطط عامر لتوضيع قوات هجومية في غزة، وأخرى على شواطئ تيران. ووفقاً لذلك أمر المشير قائد المظليين الجنرال عبد المنعم خليل لنقل وحداته بهدوء إلى شرم الشيخ ويستعد لاستلام قيادة المنطقة بحلول ٢٠ مايو، ناقش الجنرالات الكبار -فوزي ومرتجى وصدقي محمود- الأمر قائلين إن مثل هذه التحركات سوف تضطر مصر إلى إغلاق مضائق تيران واستفزاز إسرائيل لتخوض حرباً ضدنا، ولكن عامر أهمل هذه النصيحة وقال بإصرار: لقد قررت القيادة العليا احتلال شرم الشيخ، ومن الواجب تطبيق هذا القرار». (١٣)

وفي صبيحة يوم ١٦ مايو، أثناء قيام عامر بتفقد المدرعات المتحرجة إلى سيناء، قدم الدكتور محمود فوزي مسوّدة كتابه إلى ريكهاي (Rikhye) التالية:

«أحيطكم علما، بأنني أصدرت تعليماتي لقوات الجمهورية العربية المتحدة المسلحة لتكون على استعداد للقيام بعمل ضد إسرائيل في حال نفذت إسرائيل أي عمل عدواني ضد أي قطر عربي. وبموجب هذه التعليمات تقوم قواتنا الآن بالاحتشاد في سيناء على طول حدودنا الشرقية. وحرصاً على السلامة التامة لقوات الطوارئ الدولية التي تقيم مراكز مراقبة على طول حدودنا، فإني أطلب إليكم إصدار الأوامر بسحب جميع هذه القوات على الفور».

ووفقاً لما أورده هيكل، وجد الرئيس فروقاً بين النصين العربي والانكليزي للرسالة، واستعاض عن كلمة «سحب» كلمة أخرى هي «إعادة انتشار» وشطب كلمة «جميع» الواردة قبل عبارة «هذه القوات». وشرح محرر الأهرام ذلك بقوله: «كانت غاية عبد الناصر إزالة أي سوء فهم يتعلق باستمرار وجود قوات الطوارئ الدولية في غزة وفي شرم الشيخ». وطلب عبد الناصر متعمداً من المشير عامر أن يدخل هذه التغيرات على الرسالة النهائية، ولكن عبد الحكيم عامر أخبر ناصر بأن الرسالة قد أرسلت، وأن جهوداً سوف تبذل لاعتراض ناقل الرسالة. أزعج جواب عامر عبد الناصر، رغم أن انزعاجه لم يكن مفرطاً لأن الغموض في النص يمكن توضيحه دائماً إلى يوتانت. (١٤)

## طرد

كان يشغل ٤١ موقع مراقبة على طول الحدود الدولية في شرم الشيخ وغزة قوة الطوارئ الدولية التابعة للأمم المتحدة والتي يبلغ تعداد أفرادها ٤٥٠٠ رجل -نصفهم تقريباً من الهنود والكنديين، واليوغسلافيين، والسويديين، والبرازيليين، والنروجيين، والدانماركيين. كانت قوات الطوارئ الدولية تعاني منذ العام ١٩٥٧ من عجز حاد في الميزانية والأفراد إضافة إلى الشكوك المحيطة بها من قبل الدول الغربية بسبب سخطها من انحياز الأمم المتحدة المتزايد للموقف السوفياتي. وفي أعقاب فشل جهود قوات حفظ سلام أخرى، خصوصاً في الكونغو (Congo) فإن الثقة بقدرة قوات الطوارئ الدولية هذه على منع الاعتداءات المصرية- الإسرائيلية، كانت ضعيفة؛ والواقع أنها لم تستطع فعل شيء سوى مراقبة هذه الاعتداءات لدى وقوعها. ومع ذلك فإن مجرد وجود قوات طوارئ دولية تكفي لردع الحرب أثناء فترات الاحتكاك العربي الإسرائيلي الكثيف، ويكفي لمنع التسلل إلى غزة، ولتأمين الملاحة الحرة عبر مضائق تيران. (١٥)

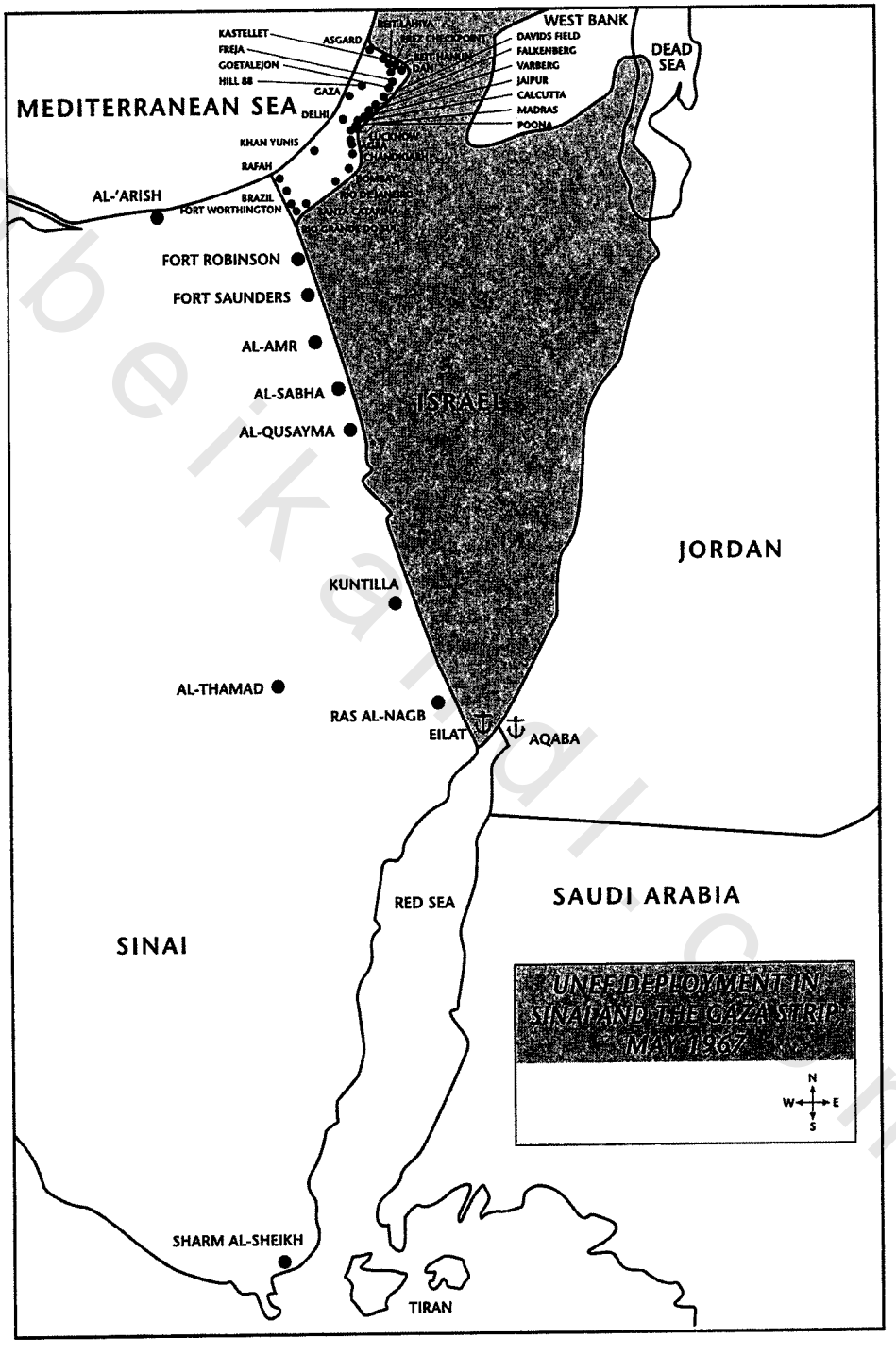

MEDITERRANEAN SEA
KASTELLET
FREJA
GOETALEJON
HILL 88
ASGARD
BEIT LAHIYA
EREZ CHECKPOINT
BEIT HANUN
DAN
GAZA
DELHI
KHAN YUNIS
RAFAH
BRAZIL
FORT WORTHINGTON
LUCKNOW
AGRA
CHANDIGARH
BOMBAY
RIO DE JANEIRO
SANTA CATARINA
RIO GRANDE DO SUL
WEST BANK
DAVIDS FIELD
FALKENBERG
VARBERG
JAIPUR
CALCUTTA
MADRAS
POONA
DEAD SEA
AL-'ARISH
FORT ROBINSON
FORT SAUNDERS
AL-AMR
AL-SABHA
ISRAEL
AL-QUSAYMA
JORDAN
KUNTILLA
AL-THAMAD
RAS AL-NAGB
EILAT
AQABA
RED SEA
SAUDI ARABIA
SINAI
UNEF DEPLOYMENT IN SINAI AND THE GAZA STRIP, MAY 1967
N
W
E
S
SHARM AL-SHEIKH
TIRAN

كان وجود هذه القوات، على أية حال، معلقاً على تصور قانوني.

إذ إن اتفاق النوايا الحسنة، الذي صاغه داغ همر شولد (Dag Hammarsk-jold)، الأمين العام للأمم المتحدة، في العام ١٩٥٦ الذي تقوم بموجبه مصر باستشارة الجمعية العمومية للأمم المتحدة، والمجلس الاستشاري لقوات الطوارئ الدولية قبل إجراء أي تغيير في مهمة القوات التي انتديت لها، لم يكن ملزماً. فالمصريون، في واقع الأمر، يستطيعون طرد القوات متى شاؤوا. يمكن إعطاء مثل هذا الامتياز فقط عندما يقال: إن حالة الحرب / العداء التي تكبحها قوات الطوارئ الدولية، لم تختف أبداً. قال سفير الهند سابقاً إلى الأمم المتحدة: «يُعَدُّ طلب انسحاب القوة من أجل خوض معركة مع الخصم مناقضا بصورة مباشرة لإيجاد القوة نفسها ونشرها في المنطقة». بيد أنه لا يمكن توقع صمود هذا التحليل لو قرر عبد الناصر طرد القوة. كان يوتانت صريحاً في حديثه مع الزعماء المصريين والإسرائيليين، إذ قال: «الخيار هو خيار عبد الناصر فقط». (١٦)

كان هذا هو الوضع المفترض، عندما أخبر العميد إبراهيم شرقاوي ضابط الارتباط بين مصر وقوات الطوارئ الدولية، في الساعة العاشرة من تلك الليلة المثيرة، الجنرال ريكهاي (Rikhye) بأن ساعياً خاصاً قد وصل من القاهرة. كان ريكهاي (Rikhye) قد تلقى من توِّه تقارير عن تحركات غير عادية لجنود فوق قناة السويس، ولكنه لم يُلْقِ لها بالاً، قائلاً لنفسه: «هذا هو فصل تبادل التهديدات الشفهية، والمظاهرات، والاستعراضات.. والتوتر العالي».

ولدى دخول الزائر عرَّف نفسه بأنه العميد عز الدين مختار، وقدم على الفور الرسالة التي كتبها ووقعها الجنرال فوزي، قائلاً: «أود تلقي جوابك على الفور». وأوضح أن على قوات الطوارئ الدولية الرحيل عن الصبحه (Al-sabha) إحدى نقاط الوصل الحيوية على الحدود الإسرائيلية، وعن شرم الشيخ، تلك الليلة، منذراً إياه بأن القوات المصرية في طريقها إلى ذينك الموقعين، وأن محاولة قوات الطوارئ الدولية إيقافها ربما يؤدي إلى «صدامات».

كان لريكهاي (Rikhye) البالغ من العمر ٤٨ عاماً من أسرة براهميه (Brahmin) من لاهور (Lahore) سجل خدمات مُمَيَّز مع الجيش البريطاني أثناء الحرب العالمية الثانية، ومن ثم الأمم المتحدة في الكونغو، وغينيا الجديدة، وجمهورية الدومينيكان. كما قضى فترات طويلة في الشرق الأوسط، وكان يعلم أن انتداب قوات الطوارئ الدولية مهلهل في أحسن أحواله، وأن حرباً عربية - إسرائيلية ربما تنفجر بين لحظة وأخرى. لقد كتب إلي يوتانت قبل أسابيع فقط مذكرة مفصلة يحثه فيها على القيام بمهمة وساطة طارئة سريعة. ولكنه لم يتلق أيَّ جواب. ومع ذلك لم يكن هذا الصديق يوتانت بأشد صدمة من رسالة فوزي التي اعتبرها ريكهاي (Rikhye) ضربة شخصية ومهينة له. وسأل العميدين المصريين إن كانا يعرفان نتائج تصرفهما.

فأجابه شرقاوي مبتهجاً: «آوه؛ نعم سيدي. لقد توصلنا إلى ذلك القرار بعد دراسة متأنية طويلة، وأعددنا الأمر لكل الاحتمالات.فإن نشبت حرب فلسوف نلتقي في تل أبيب».

كان ريكهاي (Rikhye) في حيرة من أمره فيما يتعلق بطبيعة المطالب المصرية بالضبط، إذ لم يرد في الرسالة ذكر للصبحة ولا لشرم الشيخ. وبدا له وكأن مصر تريد بقاء قوات الطوارئ الدولية في غزة، والانسحاب بعيداً عن الحدود ومضائق تيران، فقرر أن يتلاعب بالزمن ويستغله، فأخبر ضيفه أنه لا يملك سلطة إصدار أمر بإزاحة قوات الطوارئ، لأن المسألة ليست عسكرية بين جنرالات، بل هي قانونية يجري الفصل فيها بين ناصر ويوتانت. ثم أرسل رئيس قوات الطوارئ الدولية برقية إلى يوتانت في مقر الأمم المتحدة في نيويورك، وهتف إلى قادة الكتائب في الصبحة وشرم الشيخ آمراً إياهم بالبقاء في مواقعهم أطول زمن ممكن، وأن يحجموا عن استخدام القوة، إذا ما أجبروا على الرحيل. (١٧)

مع التأخير، ومع فارق التوقيت بين مناطق العالم، وصلت رسالة فوزي إلى مكتب يوتانت عند المساء. كان معه رالف بنش (Ralph Bunche) الذي لم يعد وسيط أربعينيات القرن العشرين النشيط، بل الذي أصبح الآن يعاني من مرض السرطان

والسكري، ومع ذلك ظل خبيراً رائداً للمنظمة العالمية في شؤون الشرق الأوسط الدبوماسية، وكان رد فعله الأولي على الأزمة متفائلاً، مطمئناً غولد بيرغ بقوله: «هناك قدر كبير من الثقة والمناورة السياسية، فإذا ما عالجنا الأمر بعناية، يمكننا الحفاظ على الوضع وعلى دور قوات الطوارئ الدولية». ومع ذلك كان بنش (Bunche) متفقاً تماماً مع موقف الأمين العام للأمم المتحدة الذي يقول بأن لمصر حق السيادة في طرد قوات الطوارئ الدولية مهما بدا هذا القرار غير حكيم. ولسوء الحظ لم يكن اعتبار القرار غير حكيم متبادلاً بينه وبين المصريين الذين كانوا ينظرون إليه كتابع خاضع لواشنطن أو -عميل امبريالي- حسب تعبير عبد الناصر.

استدعى يوثانت وبنش السفير المصري في الساعة ٦,٤٥ إلى مكتب الأمين العام للأمم المتحدة. كان محمد عوض القوني «صارماً وقاسياً»، نحيل الجسم أصلع الرأس، وقد عمل دبلوماسياً مدة أربعين عاماً من عمره البالغ حينذاك ستين عاماً، وكان مؤيداً قويا لعبد الناصر منذ قيام الثورة المصرية، كما وصفه أحد المراقبين. أما سفير سورية طعمة فقد وصف زميله المصري بأنه «نبيل من أسرة نبيلة، ذو شخصية بارزة يكره فكرة الحرب». ولكن القوني لم يخف كرهه لبنش (Bunche) فوجَّه كل انتباهه إلى ما قاله يوثانت فقط.

قال يوثانت: إن مصر قد أخطأت في معاملة قوات الطوارئ الدولية بوصفها قضية عسكرية بدلاً من كونها قضية دبلوماسية، وأن تسويتها تتم بين عبد الناصر والسكرتير العام للأمم المتحدة. ولا يمكن لانتداب القوات أن يُغيَّر أو يخفض على عجل.

قال موضحاً: «لا يمكن أن يُطلب إلى قوات الطوارئ الدولية أن تقف جانباً ليتمكن الطرفان من الاقتتال. إذ إن الطلب إليها بالانسحاب مؤقتا يرقى إلى اعتباره طلباً بانسحابها كليا من غزة وسيناء لأن ذلك سيجعل القوة بلا أية فاعلية».

ذكر اتفاق «النوايا الحسنة» مراراً وتكراراً إلى جانب مخاطر تفكيك هذه القوة وحلها. وأكد يوثانت أنه لا توجد أية مخاطر تفكيك هذه القوة وحلها. وأكد يوثانت أنه لا توجد أية أدلة عل هجوم إسرائيلي وشيك. وبعد أن أدرج الأمين العام للأمم

المتحدة كل هذ التوضيحات والتحذيرات وصل إلى نقطة الحسم فقال: «إذا كانت حكومة الجمهورية العربية المتحدة راغبة في سحب قواتها التي أعطتها الموافقة في العام ١٩٥٦ على توضيع قوات الطوارئ الدولية في أراضي الجهورية العربية المتحدة وغزة، فإن ذلك من حقها بالطبع». (١٨)

ورغم إصرار الأمين العام على أن فكرة طرد قوات الطوارئ الدولية ليست جيدة، فإنه كان متمسكاً برأيه في أن لمصر الحق في طردها نهائياً؛ وكان عبد الناصر سريعاً في ممارسة هذا الحق. إذ بعث بقراره إلى المارشال تيتو، الرئيس اليوغسلافي، وإنديرا غاندي، رئيسة وزراء الهند، اللذين وافقا، كما هو متوقع، على سحب فصائلهما من سيناء.

في فجر اليوم التالي ١٧ مايو، كانت مجموعة مؤلفة من ثلاثين جندياً مصريا وثلاث عربات مدرعة قد أحاطت بموقع مراقبة في «الصحبة» (Sabha) يشغله يوغسلافيون، وتقدموا إلى الحدود. احتج ريكهاي (Rikhye) على هذا التطور إلى شرقاوي، وجواباً على احتجاجه تلقى رسالة أخرى من الجنرال فوزي ينصحه فيها بإخراج جميع عناصر قوات الطوارئ الدولية من الصبحة في غضون ٢٤ ساعة، ومن شرم الشيخ في غضون ٤٨ ساعة. ومازال المصريون يأتون. وما إن دقت الساعة الواحدة بعد الظهر حتى بلغ عدد الفصيل المصري في الصبحة ١٠٠ رجل، وثلاثين عربة، في حين وصل عنصر متقدم إلى كونتيلا (Kuntilla) في الجنوب، كذلك. (١٩)

لقد حوصرت قوات الطوارئ الدولية -ولم تعد عند النقاط الجوهرية بقادرة على مراقبة الحدود بل أصبحت تشاهد تعزيزات الجنود المصريين -ومن ثم شلّت فاعليتها بفضل انسحاب جنود دولتين مشاركتين فيها. ولدى تقييم يوتانت لهذه التطورات أصبح أكثر عزوفاً عن مقاومة قرار عبد الناصر. إذ شعر أنه لا يستطيع اللجوء إلى الجمعية العمومية حيث ستؤيد الكتل الشيوعية والإفريقية- الآسيوية مصر بالتأكيد، ولا إلى مجلس الأمن الذي يشله الفيتو الأمريكي والفيتو السوفياتي.

وخشي أن تسفر أية محاولة منه لإعاقة الجيش المصري عن تعريض عناصر قوات الطوارئ الدولية للخطر، وتهدد عمليات حفظ السلام في أمكنة أخرى. وعلى الرغم من أن مستشاره القانوني نصحه بعدم اتخاذ «خطوة راديكالية» في الخضوع إلى إنذار مصر النهائي قبل الرجوع إلى الهيئات التابعة للأمم المتحدة ذات الصلة، فإن يوثانت كان قد حزم أمره. فقد كتب فيما بعد قائلاً: «لا يمكن أن أفهم أن قيام الجمهورية العربية المتحدة بسحب موافقتها على وجود قوات الطوارئ الدولية أن يواجه بأي قرار سوى الموافقة على طلبها.. والواقع أنه لا أهمية لمسألة الإذعان طالما أن الموافقة قد ألغيت». وبدا كأن الأمين العام للأمم المتحدة كان أكبر عقبة في سبيل بقاء قوات الطوارئ الدولية. (٢٠)

وفي اجتماع عقد بعد الظهر وضم اللجنة الاستشارية لقوات الطوارئ الدولية والأمين العام للأمم المتحدة، أيد الوفدان الهندي والباكستاني حق مصر في طرد قوات الطوارئ من طرف واحد، رغم أن السفراء الغربيين كانوا يجادلون بعنف من أجل تأجيل اتخاذ قرار نهائي. إذ قال يوتانت للجنة: «كان من المفروض عموماً في العام ١٩٥٧ أن تتوضع قوات الطوارئ الدولية هناك لبضعة شهور فقط». مدعيا أن اتفاق «النوايا الحسنة» كان يتعلق فقط بإخراج القوات من سيناء- وهو هدف قد تحقق منذ زمن. وأصر قائلاً: إذا لم تعد موافقة الجمهورية العربية المتحدة موجودة، فإن على قوات الطوارئ أن تنسحب، ليس هناك أي بديل وتضمنت المذكرة التي بعثها الأمين العام لعبد الناصر في ذلك المساء تعليلاً ممائلاً حيث كرر اعترافه بحقوق مصر، وتذكيره لريكهاي (Rikhye) بأن قوات الطوارئ في سيناء خاضعة لتصرف مصر». (٢١)

كان لمصر حق لا يهاجم بإخراج قوات الطوارئ الدولية رغم أنها بطرد هذه القوات تخاطر بتفجير حرب إقليمية، إن لم تكن عالمية - كان ذلك هو الموقف المتناقض ظاهريا لرجل مسؤول عن صيانة السلم العالمي. كان يوتانت البالغ من العمر ٥٨ عاماً، الذي شغل منصب مدير مدرسة ثم اشتغل في الصحافة، وسكرتير

الحكومة الصحافي، وأصبح في العام ١٩٥٧ ممثل بورما (Burma) الدائم في الأمم المتحدة، المولع بفكاهات تلاميذ المدارس ومع ذلك يتسم بالرصانة والهدوء، كان هذا الرجل من وجهة نظر أحد أقرب مستشاريه «بلا عاطفة، قمري الوجه.. بسيط التفكير.. «وكما قال جورج طعمة»: كان بوذيا بكل ما في الكلمة من معنى، لا يمكن التنبؤ بردود فعله».

وكان يوتانت خاليا من العيوب سوى السيجار (من شيروت) الذي كان يدخنه وطعامه البورمي المبهّر كثيراً. وبعد أربع سنوات، إثر وفاة همرشولد لدى تحطم طائرته في الكونغو، اختير يوتانت الذي كان حينذاك يشغل منصب رئيس لجنة التوفيق الكونغولية التابعة للأمم المتحدة، لإتمام مدة الأمين العام المرحوم. ثم أعاد مجلس الأمن تعيينه في ديسمبر من العام ١٩٦٦، واشتهر بالصبر، وإن كان رجل دولة محدود.

قال عنه بريان أوركوهارت (Brin Urquhart)، نائب أمين عام الأمم المتحدة: «يتمتع يوتانت برؤية قوية للصواب والخطأ، ويفوق حسه الأخلاقي حسه السياسي، ويجعله ذلك يفعل ما يراه صحيحاً، حتى ولو كان مسيئاً له سياسياً. وكان ما يعتقده صحيحاً، يعد في نظر المسؤولين الأمريكيين، مناهضاً للغرب، وبالتالي مؤيداً للسوفيات. وهكذا، كما وصفه هـ. يوجيني مور أندرسون (Eujeni Moor e An-.H derson) ممثل الولايات المتحدة في الأمم المتحدة. «ورث يوتانت سيكولوجية الآسيوي.. ولديه نزعة متأصلة ضد الرجل الأبيض». (٢٢)

ورغم أن يوثانت لم يكن ذا ميول معادية للصهيونية، فقد أظهر مشاعر متناقضة تجاه الدولة اليهودية التي لم تكن مناسبة في بيئة الانقسام بين الشرق والغرب، وبين الآسيوي والقوقازي.

في حين كان لمصر ميول معادية للصهيونية، رغم أن معارضتها لقوات الطوارئ الدولية كانت مصدر قلق. وكانت الفوضى الناجمة التي نشأت في ذهن يوتانت واضحة عندما قال معللاً: في رسالة شخصية بعث بها إلى سفير الولايات المتحدة

غـولد بيـرغ: (Gold berg) «من الواضح أنه لا يمكن المجـادلة في أن إسـهـام قـوات الطوارئ الدولية في حفظ الهدوء في المنطقة فترة طويلة الذي ما كان ينجز لولا تعاون الجمهورية العربية المتحدة، يجعلنا نقول لحكومة الجمهورية العربية المتحدة: إنه لا يحق لك إخراج هذه القوات من طرف واحد، وبالتالي نعاقب هذه الحكومة على تعاونها لفترة طويلة مع المجتمع الدولي لصالح السلام. وبعبارة أخرى، إن إسهامات مصر السابقة في السلام يؤهلها لأن تهدد ذلك السلام في المستقبل. (٢٣)

ومع ذلك كان يوتانت يعتقد أن حل أحجية قوة الطوارئ الدولية بسيط، وقدم ذلك الحل صبيحة اليوم التالي في ١٨ مايو إلى السفير الإسرائيلي. الحل هو أن تعبر قوات الطوارئ الدولية الحدود وتعيد انتشارها في الأراضي الإسرائيلية. لم تكن الفكرة جديدة، إذ إن همر شولد كان قد طرقها لدى تشكيل قوات الطوارئ الدولية بدعم من الولايات المتحدة الأمريكية. رفضت إسرائيل الفكرة حينذاك على أساس أن مصر، وليس إسرائيل، التي تحتفظ بحالة الحرب، وترسل الفدائيين من غزة، وتغلق مضائق تيران. وبما أن قوات الطوارئ الدولية تتألف من كتائب من دول مختلفة غير متعاطفة مع إسرائيل، فإنها ستكون أقل صداً لعدوان مصري من تقييد ردود الفعل الإسرائيلية على ذلك العدوان.

كانت جميع هذه المناقشات والتعليلات معروفة تماماً لدى جدعون رافائيل (Gideon Rafael) سفير إسرائيل إلى الأمم المتحدة.

ورغم أن تعيينه سفيراً كان حديث العهد إلا أنه يعد من مؤسسي وزارة الخارجية الإسرائيلية، وكان حاضراً عند التصويت في الأمم المتحدة على قرار التقسيم، وأثناء المناقشات المراتونية حول أزمة السويس ،إذ كان جدعون قد بلغ الخامسة والأربعين من العمر. وبما أنه مزّود بتعليمات بوجوب منع إخراج قوات الطوارئ الدولية مهما كلف الثمن، فقد رفض التفاوض على وجود هذه القوات على التراب الإسرائيلي، وانتقد سلبية الأمم المتحدة في مواجه القوات المصرية -وقال موبخاً يوتانت: «كان

بإمكانك أن تصرخ في وجوههم، على الأقل، قبل أن تطلق النار عليهم». وذكر رفائيل الأمين العام بالوعود التي تلقتها إسرائيل من سلفه، بأن أي طلب لإخراج قوات الطوارئ الدولية يجب أن يعرض على الجمعية العمومية التابعة للأمم المتحدة. ادعى يوتانت أنه يجهل تلك الوعود، فوصفه رافائيل بأنه «مذهول.. مرتبك» -وأكد للإسرائيليين أنه سوف يبعث إلى عبد الناصر مناشدة ملزمة. (٢٤)

كان تسارع الأحداث في سيناء يفوق تسارعها في نيويورك. فلم يعد بإمكان طائرات قوة الطوارئ الهبوط في مطار العريش، تاركة الطعام يتعفن في حجرات الشحن فيها، وأفراد القوة يتضورون جوعاً. واستولى المصريون تماماً على جميع مواقع المراقبة في الصبحة والكونتيلا، وأطلقت نيران المدفعية على مقربة من المواقع في القسيمة (al-Qusayma) وفي شرم الشيخ قام مظليون محمولون على متن مروحيات يعززهم قاربان مسلحان على مقربة الشاطئ، طلبوا من حامية قوة الطوارئ المؤلفة من ٣١ يوغسلافيا الرحيل على الفور. ومع ذلك لم يحدث الاحتكاك من الجانب المصري وحده. إذ لوحقت طائرة كاريبو (Caribou) التي كانت نقل الجنرال ريكهاي (Rikhye) قرب الحدود الإسرائيلية، مع طلقات تحذيرية من طائرات الميستير (Mysteres) الإسرائيلية. (٢٥)

وعلى الرغم من اعتذار رابين فيما بعد عن هذا الحادث، إلا أن هذا الحادث قد عزز الإحساس بقرب حصول أزمة لدى ريكهاي (Rikhye).

بلغت تقلبات ذلك اليوم ذروتها في برقية بعث بها وزير الخارجية المصري، رياض، إلى يوتانت؛ كانت تتضمن الرسالة التي طلبها الأمين العام للأمم المتحدة من القوني (EL-Kony)، فحصل عليها الآن: «تتشرف حكومة الجمهورية العربية المتحدة بأن تحيط سموكم بأنها قررت إنهاء وجود قوات الطوارئ الدولية التابعة للأمم المتحدة من أراضي الجمهورية العربية المتحدة وقطاع غزة؛ لذا يرجى اتخاذ الخطوات اللازمة لانسحاب القوات بأسرع ما يمكن».

يدل النص على تحول حاسم في التفكير المصري الرسمي فخلال اليومين السابقين، ومنذ أن أحيط ريكهاي (Rikhye) علماً بنوايا مصر، والغموض تلف مسألة ما إذا كانت قوات الطوارئ الدولية قد أمرت بمغادرة بعض المناطق في سيناء أم بمغادرة الشرق الأوسط كلياً.

إذ يمكن تفسير رسالة فوزي الأصلية بأنها طلب إلى الـ UNEF بمغادرة الحدود فقط، وفق رغبة عبد الناصر؛ ولكن رغبة عامر هي التي نفذت، على ما يبدو، من قبل الجنرال مختار الذي طلب إلى الـ UNEF بالرحيل عن شرم الشيخ، وبنزول القوات المصرية هناك. والآن بَيَّن رياض المسألة بوضوح: على جميع قوات الطوارئ الدولية (UNEF) أن تغادر».

شك عبد الناصر بأن بنش (Bunche) حاول خداعه بالتهديد بحل قوات الطوارئ الدولية إذا ما طلبت مصر نقلها بعيداً عن الحدود. أما الآن، فقد ادعى الرئيس المصري أنه طلب ذلك بصراحة وطرد قوات حفظ السلام كليا ورغم الجدل الذي ربما يثار فيما بعد حول ما إذا كان عبد الناصر قد سعى حقاً إلى الاحتفاظ بقوات الطوارئ الدولية في غزة وشرم الشيخ -وهو أمر نفاه بنش (Bunche) بشدة- فإن نهاية مطاف القوة لم يكن له علاقة بيوتانت (Uthant). فهو يرى أن أي طلب بتغيير مواقع القوة يرقى إلى طلب سحبها كليا. لقد نصب عبد الناصر فخّاً لنفسه، اعتقاداً منه أن بنش (Bunche) كان قد أعد له فخّاً. (٢٦)

تلقى الأمين العام للأمم المتحدة رسالة فوزي بإذعان تام، إن لم يكن بأسف. إذ أجاب على سؤال بجفاف: «إنني سأصدر تعليمات بدون تأخير بانسحاب القوة»، وأضاف قائلاً: «ولدي هواجس خطيرة من أن انسحابها سيسفر عن أزمات خطيرة للسلام. وفكر في مناشدة عبد الناصر، وطلب من بريان أوركوهارت (Brian Urquhart) أن يصوغ مسودة الرسالة، وكان القوني (EL-Kony) يميل أيضاً إلى النصح باتباع الحكمة، متأكداً من أنَّ مسألة قوات الطوارئ الدولية سوف تناقش في

الجمعية العومية للأمم المتحدة، لا محالة، بيد أن عبد الناصر لم يكن يرى ذلك أبداً. فجوابه الذي حمله رياض كان جامعاً محكماً: «انصحه (يوتانت) ألا يرسل أية مناشدة تتعلق بقوات الطوارئ الدولية لتجنب رفض القاهرة الذي ربما يربكه، وهو أمر لا نريده له أبداً». لم يكن الأمين العام بحاجة إلى مزيد من الحث، فغض النظر نهائياً عن الفكرة كلها. (٢٧)

وصلت نسخ من المراسلات بين رياض ويوتانت إلى ريكهاي (Rikhye) في الساعة ٤,٣٠ من صبيحة يوم ١٩ مايو (آيار). فأصيب بإحباط مرير-إذ كان يرى أن بإمكان الأمم المتحدة أن تجرب عدداً من تكتيكات التأخير كإرسال بعثة تقصِّي حقائق إلى المنطقة، مثلاً- ولكنه لم يفاجأ بالأمر.

قال متذكراً: «وقفت وقلت لصبياني، هيا انهضوا، لقد حان أوان الرحيل». وتم استيلاء المصريين على مواقع المراقبة الواحد تلو الآخر بعد ظهر ذلك اليوم. ولم تعد سلامة عناصر قوات الطوارئ الدولية مضمونة في تلك المنطقة، كما قالوا. وفي الساعة الخامسة بعد الظهر، كانت وحدات من جيش التحرير الفلسطيني قد شغلت نقاط التفتيش عند حاجز إرتيز (Erez) فاصلة بذلك غزة عن إسرائيل. وصف ريكهاي (Rikhye) المشهد على النحو التالي: «قَدَّم حارس الشرف السلاح، وعزفت الموسيقى السلام، وأنزل علم الأمم المتحدة جنديٌ سويدي شاب طواه ثم سلمه إلى الليفتنانت الذي سلمه بدوره إلى قائده. سار الكولونيل ليندزكوغ (Lindskog) إليَّ وسلمني العلم والحزن يغمر وجهه».

رأى ريكهاي (Rikhye) تعابير مختلفة على الوجوه «ابتسامة عريضة من الأذن إلى الأذن» ارتسمت على وجه الجندي الفلسطيني الذي كان يحرس البوابة. حيَّاه الجنرال، قائلاً لنفسه: «كل شيء لك الآن». وشاعراً بالحزن عليه. ثم تقدم عبر الحواجز إلى مكتب ضابط الارتباط في جيش الدفاع الاسرائيلي ليقدم تقريراً بأن انسحاب قوات الطوارئ الدولية من غزة قد استكمل. وبحلول منتصف الليل كان

المصريون قد أعلموا الأمم المتحدة بأن الجمهورية العربية المتحدة قد بسطت سيادتها على سيناء، وينبغي ألا يسمح لأي عنصر من القوات الدولية التابعة للأمم المتحدة بالبقاء في سيناء حتى إشعار آخر واقترح عبد الناصر أن يقلد قوة الطوارئ الدولية وساماً تقديراً لخدماتها ومكافأة لها على قبولها الرحيل سلميا، بيد أن ريكهاي (Rikhye) اعتذر بأدب عن قبول هذا التكريم. إذ كان يعتقد أن مهمة القوة لم تنجز أبداً، كما تبين الأمر في ذلك المساء مع أول تبادل إطلاق نار عبر الحدود. (٢٨)

عُممت التقارير المتعلقة بقرار الـ UNEF على الجمعية العمومية ومجلس الأمن في ١٩ مايو. وسعى يوتانت أن يعلل في هذه التقارير إذعانه لإملاءات ناصر، مع إبداء أسفه لما ستنجم عنه هذه الإملاءات من مخاطر. وأوجز خلفية الجدل الدائر - الصراع على المناطق المنزوعة السلاح الشمالية، وهجمات فتح، والتقارير الكثيرة عن حشود إسرائيلية. وانتقد بوجه خاص إسرائيل بسبب بيانات المسؤولين الاسرائيليين «الملهبة»، ورفض إسرائيل الاعتراف بلجنة الهدنة المشتركة في غزة التي كان بالإمكان أن تكون بديلاً جزئياً لقوات الطوارئ الدولية، برأيه. وكان هم الأمين العام الوحيد هو أن طرد الـ UNEF لم يكن بسبب أدائها إذ أنها قامت بواجبها «بفعالية ملحوظة وتميُّز كبير».

كانت هذه العبارة رثاء «لقوات الطوارئ الدولية (UNEF)».

سارع منتقدو يوثانت إلى الإشارة بأنه تصرف بسرعة لا سابقة لها -وهو أمر يؤسف له- في قبول مطالب مصر المتزايدة. إذ لم يستشر رسميا الدول المشاركة بهذه القوات، قبل اتخاذ قراره، وبالتأكيد لم يستشر إسرائيل، ولم يناشد عبد الناصر. أدان الغرب تصرفه- فوصفه أحد الكتاب في صحفية نيوزويك، هو جوزيف ألسوب (Joseph Alsop) «بأنه رعديد» ووصفه س. ل. سولز بيرغر (C.L. Sulz-berger) محرر نيويورك تايمز بأنه يتمتع «بموضوعية المحب المنبوذ، وبدينامية المغفل». ومع ذلك لم يحدث أي شيء فيما يتعلق بالأمر. خوفاً من الوحدة

الأفريقية- الآسيوية، والفيتو السوفياتي، لم تجرؤ الدول الغربية على طرح الموضوع في الجمعية العمومية أو مجلس الأمن. وبعد شهر تقريباً في ١٧ يونيو (حزيران) عندما غادر أخر جندي تابع للأمم المتحدة سيناء، لم يذكر هذا الحادث إلا نادراً. ولكن منذئذ، وسيناء، بل والشرق الوسط كله في واقع الأمر، أصبح مكاناً مختلفاً جداً.

لم تعد المسألة، الآن في نظر يوتانت، كيف يمكن إحياء قوات الطوارئ الدولية، بل كيف يمنع نشوب حرب. اقترح أبا إيبان (Abba Eban) أن يقوم الأمين العام للأمم المتحدة، وأركوهارت (Urqohart) وبنش (Bunche)، على الفور بمهمة وساطة إلى القاهرة ودمشق والقدس. عرض الاقتراح على يوتانت، ولكن بصورة جزئية. إذ يتوقف فقط في القاهرة بناء على ما يسمى بـ «زيارة منتظمة مقررة سلفاً»، دون أن يصطحب معه أركوهارت ولا بنش المكروهين عند المصريين، ودون أن يغادر على الفور، بل يبقى ثلاثة أيام أخرى، عندما يخبره طالعه بأن الوقت مناسب لرحلته. (٢٩)

## إسرائيل تنتظر

«الانتظار» أو «الهاهامتانا (Ha- Hamtana) كما يسميه الاسرائيليون. هذا الوصف أطلق على الفترة التي تبدأ في ١٤ مايو (آيار) مع التقارير الأولى عن دخول القوات المصرية سيناء والتصاعد الجنوني للتوترات وما بعدها. بدأت هذه في ١٧ مايو عندما أحاط الاسرائيليين «مصدر بالغ السرية» علماً بقرار يوتانت بشأن قوات الطوارئ الدولية. فأبرقت وزارة الخارجية إلى ممثلها في رانغوان: (Rangoon) «مازال من غير الواضح أية اعتبارات دبلوماسية أو عيب في شخصية يوتانت جعلته يتخذ مثل هذا القرار الكارثي: «فإن استطعت أن تسجل أية تفسيرات يمكن أن تلقي ضوءاً على دوافعه أخبرنا على الفور». وفيما عدا خيبة أمل إسرائيل بالأمين العام للأمم المتحدة، كان على إسرائيل أن تتلمس طريقاً كيلا تخسر الانجاز الذي حققته

منذ العام ١٩٥٦، وهو تأمين حرية الملاحة عبر مضائق تيران، وتأمين الهدوء على الحدود الجنوبية. إذ انتهى فجأة عقد من الأمن وفّرته قوات الطوارئ الدولية، وحل محله طيف من الحرب مشفوعاً بسؤال: «ماذا سيفعل عبد الناصر بعد ذلك؟».

جاء الجواب، على ما يبدو من سلاح الجو المصري الذي قام لأول مرَّة بجولة استطلاع لمفاعل ديمونة النووي، في الساعة الرابعة من بعد ظهر السابع عشر من مايو (آيار). إذ اخترقت طائرتا ميغ ٢١ الأجواء الأردنية، ودخلتا إسرائيل من الشرق، وحلقتا على ارتفاع منخفض فوق الموقع السري جداً. وغادرتا إلى الحدود داخل سينا قبل أن تتمكن قوات الدفاع الإسرائيلية القيام بأي رد فعل.

لامس الحدث أحد أهم مصادر قلق إسرائيل هو أن استمرارها في إنتاج الطاقة النووية ربما يجبر مصر على شن حرب تقليدية ما دامت الفرصة مواتية.

وبالعودة إلى العام ١٩٦٤ نجد أن عبد الناصر كان قد حذر الأمريكيين أن استمرار إسرائيل بتطوير مقدرتها النووية ربما يكون سبباً للحرب.

حتى ولو كانت حرباً انتحارية. فطمأنت الولايات المتحدة عبد الناصر أن إسرائيل لا تطور أسلحة استراتيجية، ولكن ناصر لم يكرر مثل هذا الإنذار بعد ذلك أبداً، ولكن ذكرى هذا الإنذار التصق في أذهان الإسرائيليين. فهم لم ينسوا أبداً قرب المفاعل من الحدود، وإمكانية تعرضه لقصف جوي. وهكذا، رغم أن عبد الناصر لم يشر إلى ديمونة كدافع لاتخاذه قرارات مايو، فإن القيادات العسكرية الإسرائيلية، توصلوا إلى ضرورة قيامهم هم بالضربة الأولى. إذ كان خوف إسرائيل على المفاعل -وليس خوف مصر منه- هو الحافز الأكبر لشن الحرب. (٣٠)

فما إن حلقت طائرات الميغ حتى ارتفعت درجة الاستنفار إلى الدرجة الثانية، واستنفار السلاح الجوي إلى الدرجة القصوى. وطبقت عملية بلوبيرد (Bluehird) لحماية مطارات إسرائيل والمواقع الاستراتيجية الأخرى.

وقعت مسوؤلية هذه المراجعة على رجل صغير الحجم لطيف المعالم، هو الجنرال أهارون، «أهاريل» ياريف (Aharon Aharale yariv)، رئيس المخابرات العسكرية. قام ياريف وهو في سن السابعة والأربعين بمهمات ميدانية في (الهاغناه) (Haganah)، والجيش البريطاني، وأخيراً في جيش الدفاع الإسرائيلي، قبل أن يصبح ملحقاً عسكرياً في واشنطن.

ولدى عودته إلى إسرائيل، عُيِّن رئيساً لفرع المخابرات «أمان (AMAN) في العام ١٩٦٤ في زمن القمم العربية وخطة عبد الناصر للإعداد المرحلي للحرب. وفي حين كلف بقية أعضاء هيئة الأركان بالتعامل مع الاستفزازات اليومية على الحدود، كانت مهمة باريف المحتومة هي تقدير متى يكون العالم العربي في وضعية تؤهله لشن حرب كاملة على جميع الجبهات. واستخلص أن تلك اللحظة ربما تأتي في وقت ما بين عامي ١٩٦٧و ١٩٧٠ مرجحاً التاريخ الأخير. ولكن التقدير كان مبنياً على الاعتقاد بأن مصر ستظل مكبلة اقتصاديا لسبب انغماسها في حرب اليمن - وهو افتراض سرعان ما نحي جانباً. أما وأن القوات المصرية تتدفق الآن إلى سيناء، فإن على ياريف أن يطرح سيناريوهات بديلة.

قال يا ريف في تقرير رفعه إلى رؤسائه في١٩ مايو: «ليس من الواضح إذا كانت نوايا مصر من البداية هي المواجهة العسكرية أم لمجرد كسب محدود للهيبة والكرامة. على أية حال نحن مستعدون للمواجهة سواء كان ذلك نتيجة لاستفزاز مقصود أو غير مقصود».

وعرض صوراً جوية للقوات المصرية التي كان عددها حينذاك (٨٠,٠٠٠) ثمانين ألف رجل و(٥٥٠) وخمسئة وخمسين دبابة و(١٠٠٠) وألف مدفع، وأجرى مسحاً لمسارات عملياتها المحتملة. قال ياريف: «ربما يقصف المصريون المفاعل النووي» رغم أنه يرى أن المصريين يقومون بمجرد حشد للقوة في سيناء. وبذلك يمكنهم إبقاء الاسرائيليين في حالة استنفار دائم غير محدود، واستنزاف اقتصادي ،أو استفزاز إسرائيل لتقوم بالضربة الأولى التي يستطيع العرب تحويلها إلى هزيمة ساحقة لإسرائيل.

كان ياريف يرى أن ناصر لم يعد يعتقد بأن مصر أضعف من إسرائيل عسكريا، بل إنه يعتقد أن بإمكانه المقامرة بهجمات قصيرة مركزة للاستيلاء على أجزاء من النقب ويسحق جيش الدفاع الإسرائيلي بين كثبان سيناء الرملية. قال ياريف موصيا بتفعيل غالبية الاحتياطي الاسرائيلي البالغ عددهم ١٤٠,٠٠٠ جندي وموضحاً لهم بصراحة أنهم استدعوا استعداداً للحرب: «سيضربكم المصريون بشيء محدود سوف تردون على الضربة، ومن ثم يقصفون مفاعل ديمونة.. وقواتهم في بير حسان (Hasana) وجبل لبني (Jabal Libni) مستعدة للمناورة». ونصح ياريف بضرورة إحاطة المدنيين علماً بالحقيقة. (٣١)

افترضت جيمع تحليلات الجيش أن ناصر قد تصرف وفق دوافع منطقية محسوبة- ولم يرد ذكر لعلاقته المضطربة مع عامر، مثلاً، ومع ذلك ظلت تحركاته التالية سرية. وقال إشكول مؤكداً لمجلس وزرائه في مساء يوم التاسع عشر موضحاً لهم أن ناصر يريد الحرب، قائلاً: «لن يكون هناك حرب طالما أن المصريين يجلسون في سيناء ولا يتحركون. وعندما نصل إلى ذلك النهر سوف نبحث عَمَّا يصون الحياة». وهَدَّأ من روع رابين عندما حذر من أن ناصر سوف يغلق المضائق على الأغلب. ومع ذلك، قال رئيس الوزارء في تلك الليلة ذاتها إلى زعماء حزب الماباي: «الأمور أسوأ ما تبدو». ووجه الكلام إلى معاون وزير الدفاع زفي دينشتاين (Zvi Dinstein) محذراً: «ستنشب حرب.، أقول لك، ستنشب حرب». فأمر إشكول باستدعاء أضعاف من الاحتياطي إلى الخدمة العسكرية، ورفع عدد الدبابات في الجنوب إلى ٣٠٠ دبابة.

وطلب إعداد خطط للعمليات لإعادة فتح المضائق بالقوة ولتدمير المطارات المصرية إن هم هاجموا مفاعل ديمونة.

ومع ذلك، تابع إشكول، برغم كل شكوكه، النصح بضرورة التصرف بذكاء وحصافة، فطلب من وزرائه الأحجام عن إصدار بيانات عامة حول حقوق إسرائيل في الملاحة الحرة، وطلب إلى الدبلوماسيين تلافي خوض نقاش في مجلس الأمن لأن ذلك سيسفر عن لا شيء، في أحسن الأحوال، وعن وضع حقوق إسرائيل في الملاحة الحرة موضع تساؤل، في أسوأ الأحوال.

وسواء كان الأمر هو استرداد الوضع الراهن في سيناء، وتأكيد حق إسرائيل في الدفاع عن النفس، فإن رد إسرائيل على الأزمة يجب أن يكون غير ملفت للنظر، وأن تركز جهودها على العامل الأكثر فاعلية ألا وهو الولايات المتحدة الأمريكية. (٣٢)

ولكن هل كانت أمريكا تفكر في الأزمة كما تفكر فيها إسرائيل؟

لقد سمع السفير هارمان (Harman) لأول مرَّة في لقائه مع معاون وزير الخارجية الأمريكي يوجين روستو (Eugene Rostow) في ١٧ مايو، أن إسرائيل «لن تقف وحدها» شريطة ألا تتصرف عسكريا وحدها. كانت الولايات المتحدة راغبة في التحدث مع الروس، أما تأثيرها على المصريين فكان محدوداً. وأخيراً أشار روستو إلى أن ناصر كان يتصرف ضمن حقوقه في توضيع قواته على أراضيه وفي مناطق سيادته. وبالتالي فإن قيام إسرائيل بتوجيه ضربة استباقية يعد «خطأ فادحاً».

كان صدى كلمات روستو مقلقاً لكل إسرائيلي مازال يتذكر أزمة السويس، وإثارة التهديدات بالعقوبات الاقتصادية والضغط الأمريكي القاسي على إسرائيل. تعزز ذلك الإحساس بالقلق في ذلك المساء لدى تلقي إشكول رسالة من جونسون (Johnson) استبعد فيها رغم اعترافه «بأن صبر إسرائيل قد بلغ حده» بسبب الهجمات الحدودية، أي عمل عسكري وقائي استباقي محذراً: «أود التأكيد بقوة على ضرورة الإحجام عن اتخاذ أية خطوة من شأنها تزيد من التوتر والعنف في المنطقة. ولسوف تفهمون أن الولايات المتحدة لا تستطيع قبول أية مسؤولية عن أية أوضاع ربما تحدث نتيجة لأعمال لم يؤخذ فيها رأينا». (٣٣)

كان الاسرائيليون يرغبون في الالتزام، وإحاطة واشنطن علماً بأن استدعاء الاحتياط كان لأغراض دفاعية فقط، والطلب من أمريكا أن تطمئن القاهرة ودمشق بذلك. قال أبا إيبان للسفير الأمريكي باربر: (Barbour) «ليست هناك مفاتيح آلية مفتوحة»، لم يكن هناك عمل مخطط له طالما كانت مضائق تيران مفتوحة للملاحة الحرة. ولكن مقابل إحجام إسرائيل المطلوب، فإن لإسرائيل أن تحصل على مطالب:

وهي ضمانات أمريكية لصيانة أمنها. وقال إيبان موضحاً: «إن إسرائيل، إما أن تطلق النار أو تطلق الصرخات، ولكن من المستحيل سياسياً أن تبقى هادئة تجاه الإرهاب. وإذا كانت الولايات المتحدة تعتقد بأن إسرائيل الهادئة تستحق الصيانة فعليها أن تتخذ خطوات لتصدق أنها ملتزمة حقاً.

انعكس هذا الطلب في جواب إشكول إلى جونسون، إذ قال: «أفهم أنك لا ترغب في الالتزام بدون تشاور. بيد أن وجود حشد كبير على حدودنا الجنوبية مرتبطة بحملة إرهابية من الشمال ودعم الاتحاد السوفياتي للحكومات المسؤولة عن التوتر، يجعل من الضروري جداً إعادة تأكيد التزام أمريكا بأمن إسرائيل عملياً إذا مادعت الحاجة إلى ذلك». فكان لإسرائيل طلبات أخرى، كذلك، منها طائرات نفاثة ودبابات وزيارة مدمرة أمريكية لميناء إيلات للتزود بالمؤن وغير ذلك.

لم يُلَبَّ أيٌّ من هذه التوسلات. وفي حين وعد المسؤولون الأمريكيون بدراسة صفقة معونات «تلبي طلبات إسرائيل بصورة كبيرة» فإنهم لم يعدُّوا أية أسلحة لتسليمها إلى إسرائيل. وكان حصان الدعاية الذي امتطاه العرب «هو كيف استبعد وزير الخارجية الأمريكية فكرة زيارة مدمرة إلى ميناء إيلات؟ «راية حمراء لمصر» حتى إن باربر (Barbour) زوّد بتعليمات بضرورة تجنب التباحث المباشر مع إشكول خشية أن يحدث ذلك انطباعاً بوجود تواطؤ. وكتب هارمان (Harman) حتى عن احتمالات أسوأ-احتمال قيام الولايات المتحدة بممارسة الضغط على إسرائيل لتقبل قوات الطوارئ الدولية على أراضيها، والاعتراف بالأمر الواقع في سيناء. وأكد السفير إلى إيبان قائلاً: «هذه السياسات متصدعة وكارثية أساساً. إذ يقع الجزء الأكبر من المسؤولية تجاه الأزمة الحالية على عاتق حكومة الولايات المتحدة. وبالتالي فإن تحركاً أمريكياً جريئاً من طرف واحد سوف يسفر عن نتائج مرضية لكلينا». (٣٤)

تحول إشكول إلى ديغول عندما خاب أمله في جواب جونسون. علنياً قال رئيس الوزراء متوسلاً: «إن تصريحاً فرنسيا علنياً مفاده دعم أمن إسرائيل وسلامة أراضيها وحفظ السلام في الشرق الأوسط سيكون أهم رصيد ساسي ونفسي لنا في الموقف الحساس الدقيق الذي نجد أنفسنا فيه». وأرسلت مناشدة مماثلة إلى حكومة هارولد ويلسون (Harald Wilson) البريطانية، رغم أن أياً من حلفاء إسرائيل السابقين منذ العام ١٩٥٦ كان راغباً في إصدار مثل هذا البيان. وفي هذه الأثناء استدعى السفير السوفياتي شوفاخين (Chuva Khin) ثانية إلى وزارة الخارجية الإسرائيلية حيث أكد له أبا إيبان اهتمام إسرائيل بالسلام. فكان جواب السفير السوفياتي دفاعاً عن حق مصر في إخراج قوات الطوارئ الدولية وإدانة للعدوان الإسرائيلي قولاً وعملاً عسكريا ضد سوريا. ونفى شوفاخين تورط سوريا في الهجمات الإرهابية التي عزاها إلى عملاء أمريكيين إذ لقَّن إبان قائلاً: «لقد حُذِّرتم. وأنتم مسؤولون. إنكم تردون على الاستفزاز بالمخابرات المركزية الأمريكية (CIA)». (٣٥)

سعت إسرائيل للحصول على ما يطمئنها عبثاً، واستمر الحشد المصري. إذ كانت ست فرق كاملة قد اتخذت مواقعها في سيناء بحلول العشرين من مايو. وقال عامر: «من هذه المواقع يمكن القيام برد انتقامي كبير ضد أي عدوان إسرائيلي.» وأشيع أن أسطولاً مصرياً كبيراً من السفن الحربية قد دخل البحر الأحمر في طريقه إلى إيلات، وأن وزير الشؤون الدينية المصري قد أعلن الجهاد لتحرير فلسطين. وتنبأ الشقيري، رئيس م.ت.ف. بدمار إسرائيل في الحرب القادمة.

في حين قال حافظ الأسد في دمشق: «لقد آن الأوان لأخذ زمام المبادرة في تدمير الوجود الصهيوني في الوطن العربي». وفجأة تحركت وفود عربية عسكرية- عراقية إلى سورية، ووفود سورية إلى العراق.

كما صرح ماخوس (Makhous)، وزير خارجية سوريا، لدى عودته من القاهرة: «لقد تحولت بلادنا الشقيقة إلى قوة محتشدة واحدة. إن انسحاب قوات الأمم المتحدة يعني فتح الطريق لقواتنا المتقدمة إلى المعركة».

لقد دفعت أعمال عبد الناصر بالشارع العربي إلى حماس لم يسبق له مثيل منذ مطلع خمسينيات القرن العشرين. ولم يكن للقادة العرب المحافظين خيار سوى الانضمام إلى هذا الموكب حتى مع استمرار تآمر سوريا ومصر للإحاطة بهم. وهكذا دعت الرياض في ٢١ مايو العرب إلى التوحد والالتفاف حول مصر وسورية رغم أن سوريا طردت دبلوماسيين سعوديين بتهمة التعاون مع الرجعيين، وأن مصر قد عاودت قصف قواعد سعودية بالغاز. وفي اليوم نفسه انفجرت سيارة مفخخة سورية في مدينة الرمثا (Ramtha) الحدودية الأردنية وقتلت ٢١ شخصاً. وكتب الحسين لدى صرفه السفير السوري من عمان قائلاً: «لم نعد ندري أي الطرفين أقل موثوقية... إسرائيل أم حلفاؤنا العرب؟!» ومع ذلك فقد أعلن القصر الملكي «استعداد الأردن للوقوف إلى جانب شقيقاتها الدول العربية ضد العدو المشترك بكل عزم وتصميم». وقد أوجزت افتتاحية في صحيفة الزمان (al-Zaman) اللبنانية المعتدلة الموقف خير إيجاز بقولها: «إننا في مقدمة أولئك الراغبين في انهيار النظام الماركسي-الملحد في دمشق. ولكن إن كان ذلك الانهيار سيتم على يد إسرائيل، فإننا عندئذ نتمنى له الخلود». (٣٦)

لم يعد بالإمكان إخفاء شدة هذا الاضطراب وصخب هذه الجلبة عن الجمهور الإسرائيلي، وإخفاء استدعاء حوالي ٨٠,٠٠٠ جندي احتياط. كان ثمن الاستنفار مذهلاً وبدأ الرأي العام يتحول إلى نقد عجز الحكومة عن اتخاذ مزيد من الخطوات المحددة الحاسمة.

ولكن سرعان ما أمسك بن غوريون بهذا الاتجاه. فقد أنّب إشكول بقسوة على فشله في الحصول على ضمانات دولية للدفاع عن إسرائيل، وعلى بياناته العدوانية التي لم تفعل سوى استعداد السوفيات، حسب زعم بن غوريون.

لقد كان الضغط على إشكول قويا لدرجة أن ليور بدأ يخشى عليه من انهيار عاطفي أو صحي أو كليهما.

ومع ذلك كان يقع على كاهل رابين ما هو أشد وطأة إذ بتقدم القوات المصرية في سيناء استطاع الجيش المصري أخذ زمام المبادرة من إسرائيل، والمبادرة كانت هي حجر الزاوية في سياسة رابين، وضرورية لإبقاء العرب في حالة عدم توازن. وكان رابين يخشى أنه بعدم التصدي لتحدي ناصر على الفور تضحي إسرائيل بكثير من قوتها الرادعة. وعلى الرغم من بقاء انتشار العدو دفاعيا، فإن الموقف كان قابلاً للاشتعال، فأية رصاصة يطلقها قناص يمكن أن تشعل حرباً كاملة.

أسرَّ رابين إلى إشكول أثناء زيارة القوات الإسرائيلية في الجنوب قائلاً: «ستكون حرباً ضروساً تقع فيها إصابات كثيرة، ولكننا سوف نهزم العدو المصري». لم يبد رئيس الوزراء اعتراضاً، ولكن جوابه الوحيد عندما سأله رابين عن الخطوات التي سوف ستتخذها إسرائيل بعد ذلك، كان: «سنتابع خياراتنا الدبلوماسية إلى النهاية».

بدأ رابين يشعر على الرغم من عمله المتزامن مع إشكول، بالافتقار إلى القيادة في رأس هرم الدولة، خصوصاً في ما يتعلق الأمر بإعداد الجيش للحرب.

بدأ يدرك أكثر بأنه يطلب إليه صياغة سياسة بدلاً من تنفيذ أوامر الحكومة.

قال رئيس الأركان لجنرالاته في ١٩ مايو مشيراً إلى عزلة إسرائيل دبلوماسيا وعكسرياً: «لقد حان الوقت لندرك أن ما من أحد سيهب لإنقاذنا، فالسياسيون مقتنعون بأنهم قادرون على حل المشكلات دبلوماسيا. وعلينا أن نمكنهم من استنفد أي بديل للحرب، رغم أنني أرى أنه ما من سبيل لإعادة الأمور إلى ما كانت عليه. فإذا ما حاصر المصريون المضائق - فلن يكون هناك بديل عن الحرب. وإذا نشبت الحرب - لابد لنا من القتال على جبهتين». وأشار إلى أن إسرائيل لا تملك وسائل دفاع عن سواحلها المأهولة بكثافة، أو عن نفسها ضد أسلحة كيماوية.

كان رابين يفكر في ضربة استباقية، خصوصاً بهجوم يدمر فيه القواعد الجوية المصرية. كانت قوات الدفاع الإسرائيلي قد أعدَّت خطة كهذه اسمها الرمزي «موكيد» (Moked) منذ سنين، وكان رابين واثقاً من نجاحها. في حين أن الثقة

بنجاح الحملة البرية كانت أقل. تساءل رابين عن الزمن الذي تستطيع إسرائيل تحمله في القتال إلى أن يتدخل مجلس الأمن ويفرض وقفاً لإطلاق النار، قدَّر إيبان الزمن بأربع وعشرين ساعة أو اثنتين وعشرين ـ وهو وقت غير كاف لإخراج الجيش المصري من سيناء. فتوسل رابين قائلاً: «أعطني وقتاً، وقتاً، وقتاً. نحن بحاجة إلى وقت». فالدولة لا تستطيع أن تطلب من مواطنيها الموت من أجل هدف تعلم أنه لا يمكن الحصول عليه. (٣٧)

لم يمض أسبوع على الأزمة حتى كان رابين يدخن بكثرة ويشرب القهوة السادة. ووجده المراسلون الصحفيون الذين قابلوه في ٢١ مايو متلعثماً في كلامه، غير متماسك، وعلى وشك الانهيار العصبي. وأسَرَّ إيبان إلى باربر قائلاً: «رابين مصاب بالدوار» استدعي رئيس الأركان في ذلك اليوم نفسه إلى بيت بن غوريون الريفي في سدي بوكر (Sde Boker)، حيث كان والد إسرائيل المؤسس البالغ من العمر ٨١ سنة في ذلك الوقت، الغاضب، قد عقد اجتماعاً للموالين له وتآمروا على إسقاط إشكول.

قال رابين فيما بعد إلى مريم إشكول: «عندما يدعوك بن غوريون، فلا بد أن تذهب». وذهب فعلاً، ولكن بدون إعلام إشكول. وكان يراوده أمل في الحصول على دعم بن غوريون ومباركته. بيد أن ما حصل عليه هو جَلْد باللسان.

فقد هاجم بن غوريون رابين حالما دخل الباب، بقوله: «لقد حُشِرت في وضع صعب جداً. إني أشك كثيراً في أن ناصر يريد خوض حرب، والآن نحن في مأزق خطير». وعنَّفه على بياناته الاستفزازية إلى الصحافة، ولاستدعائه هذا الكم الهائل من الاحتياط - التي زادت من فرص الحرب في حين أن إسرائيل مازالت معزولة. وقال متهماً: «لقد ارتكبت أنت أو من أعطاك الأوامر باستدعاء الاحتياط وبالاستنفار خطأ فادحاً». إن التحدث مع ناصر بدون حليف من القوى الكبرى، ربما يكون مدمراً لإسرائيل في أحسن الأحوال، ومهدداً لكل منجزاتها الأمنية التي حققتها خلال العشرين سنة المنصرمة، بل ربما يكون انتحاراً.

وتلقى إشكول، بالطبع شجباً قوياً خاصًّا، «رئيس الوزراء ومجلس الوزراء هم الذين يتحملون مسؤولية اتخاذ قرار بخوض حرب أو عدم خوض حرب: إذ ليس من شأن الجيش أن يقرر. ولا تتخلى الحكومة عن واجباتها. ليس هكذا تُسَيَّرُ الأمور».

كانت الاتهامات، في نظر رابين، مدمّرة. فعلى الرغم من خيبة أمله في بن غوريون الذي لم يدرك القوة الحديثة التي وصل إليها جيش الدفاع الإسرائيلي وإنه لم يعد بحاجة لحماية بريطانية أو فرنسية، فإنه طعن طعنة عميقة بفضل النقد الذي وجهه إليه معلمه السابق بقوله: «لقد وصلت الدولة إلى وضع خطير، ينبغي ألاَّ نذهب إلى الحرب. نحن معزولون. إنك تتحمل المسؤولية».

ظلت الكلمات ترن في أذنيه بعد خروجه من البيت الريفي. «مطأطئ الرأس، خفيض الكتفين، وسيجارته تتدلى من بين شفتيه». كما وصفه أحد الشهود. (٣٨).

قال أحد مساعدي رابين نقلاً عنه وهما يدردشان في طريقهما بالسيارة من سدى بوكر: (Sde Boker) «كلما صعدت أكثر كان الجدار أعلى. ومع ذلك كان رئيس أركان جيش الدفاع الإسرائيلي في طريقه إلى جدار أعلى. إذ التقى بعد ذلك موشي دايان (Moshe Dayan)».

منذ أن استقال رئيس الأركان السابق من منصبه كوزير للزراعة في العام ١٩٦٤ عندما انشق بن غوريون آخر مرَّة عن حزب ماباي، وهو ينتقد بلا هوادة حكومة إشكول، خصوصاً سياستها فيما يتعلق بالحدود الشمالية. وهكذا قال للكنيست في أكتوبر من العام ١٩٦٦ أنه: «لم يعد هناك موجة كبيرة من المتسللين اليوم. وأن على إسرائيل ألا تقع في حُمَّى التصعيد لمجرد عبور عشرات من عصابات فتح الحدود. سوف تنضم الدول العربية إلى سوريا في نضالها السياسي ولكنها لن تتورط في أية مغامرة عسكرية يمكن أن تبادر بها سورية». وانتقد غارة السموع، والمعركة الجوية في السابع من نيسان مع سوريا، وتهديدات رابين بالانتقام. وأضاف متنبئاً: «سينتهي ذلك إلى الحرب. فمن يرسل إشارات من دخان عليه أن يفهم أن الجانب الآخر ربما

يظن أن هناك ناراً حقاً... وادعى في ١٧ مايو أن تصرف الحكومة الأخرق ربما يمكن عبد الناصر من تحقيق نصر سياسي أبيض، أو من قصف ديمونة أو من إغلاق مضائق تيران، دون إراقة دماء.

فأي دعم إذن يمكن لرابين أن يحصل عليه من ديان؟ يبدو أن رئيس هيئة الأركان كان يريد تغذية راجعة من أسلافه لخطة جديدة كان قد وضعها في حال قيام ناصر بإغلاق مضائق تيران. فبدلاً من القيام بالدفاع عن الحدود فقط، يقوم الجيش الإسرائيلي باحتلال غزة ثم المقايضة عليها لقاء حرية الملاحة عبر المضائق. قدم رابين فكرته التي أطلق عليها الاسم الرمزي أتزمون (Atzmon) إلى دايان ذلك المساء، ولكن دايان رفضها قائلاً بحزم: «هناك لاجئون كثر، وسوف يكون ناصر سعيداً بإلقاء هذا العبء عن كاهله ليلقيه على كاهل إسرائيل. فليس هناك جواب إقليمي على الإغلاق، بل جواب عسكري ونفسي. إذ لا بد من تدمير الجيش المصري وإذلال عبد الناصر كلياً».

كان لدى رابين جوابه على خطة أتزمون، ولكنه كان يريد المزيد- يريد أُذناً صاغية متعاطفة لشكواه من الحكومة. قال: إن عجز الحكومة عن اتخاذ قرار بالحرب أو بعدم خوض حرب، يضطره إلى أن يتخذ القرار بنفسه الأمر الذي يضعه في موقف لا يمكن الدفاع عنه. شكى لمضيفه ولكن مضيفه لم يحر جواباً سوى الصمت.

ويذكر دايان أن رابين انصرف من عنده «غير واثق من نفسه، مرتبكاً يدخن بعصبية بصورة غير متقطعة...» وكأنه ليس قائداً يعد العدّة لخوض معركة. (٣٩)

بدت المعركة وشيكة إذا ما تصرف ناصر في تيران. قطعت بضع قوارب إسرائيلية طلائعية المضائق، ومع ذلك كانت القناة الضيقة (سبعة أميال) بين سيناء وشبه الجزيرة العربية خط الحياة للدولة الإسرائيلية حيث كانت تشكل القناة التي تستورد عبرها إسرائيل النفط من إيران بهدوء. وللعبور من المضائق قيمة رمزية

للإسرائيليين، إذ يرمز إلى انتصارهم على المصريين في العام ١٩٥٦. وبعد أن ناضلت إسرائيل للحصول على اعتراف دولي بحقها في الدفاع عن نفسها إذا ما أغلقت المضائق، فإنّ تنازلها عن هذا الحق يعني فقدانها لقدرتها الرادعة كليا.

لقد أدى السؤال: «هل يغلق ناصر المضائق؟» إلى انقسام في صفوف القيادة الإسرائيلية، حتى عندما نزل المظليون المصريون في شرم الشيخ. كان رأي مئيرأميت (Meir Amit)، رئيس الموساد أن ناصر لن يغلق المضائق. إذ قال موضحاً رأيه: «إن مثل هذا العمل سوف يسفر عن مَحْقِ عبد الناصر، لأن ذلك التصرف مناف للمنطق العسكري والدبلوماسي. «اتفق رأيه هذا مع رأي المخابرات العسكرية الإسرائيلية، التي كانت ترى أن حصار المضائق يعني الحرب، وعبد الناصر لا يريد الحرب، بل يريد المجد والشهرة فقط. بيد أن إشكول ورابين لم يوافقا على هذا الرأي. خاطب رئيس الوزراء مجلس الوزراء في ٢١ مايو قائلاً: إن «خطة المصريين في إغلاق المضائق أو قصف المفاعل النووي في ديمونة، ستتبع بهجوم عام». وسوف تنشب حرب «تكون فيها الدقائق الخمس الأولى حاسمة. والمسألة من يهاجم مطارات الآخر أولاً».

ومع أن إشكول كان متأكداً من نشوب الحرب، لكنه لم يشأ دفع يد عبد الناصر. فقد رفض اقتراحاً بإرسال سفينة إسرائيلية طليعية عبر المضائق للتأكد من وجود احتياطيين متمركزين قرب الحدود الجنوبية وتدبر أمرهم. وطلب إلى الصحفيين ألا يذكروا شيئاً عن السفن المغادرة أو الراسية في إيلات. وطلب إشكول من الملك حسين عبر قنوات بريطانية وأمريكية أن يكف عن وصف عبد الناصر بالجبن لفشله في فرض الحصار. أدان إشكول في خطابه الافتتاحي لدورة الكنيست الصيفية الإرهاب الفلسطيني ورعاته السوريين، ولكنه وبخ عبد الناصر بلطف لتمسكه بإشاعات كاذبة. وأكد على الطبيعة المحدودة للاستنفار الإسرائيلي، ودعا إلى الاحترام المتبادل لحقوق السيادة وسلامة الأراضي، وللحقوق الدولية لكل دول الشرق الأوسط. وإذا كان لا بد من تحذير عبد الناصر، فإن ذلك ينبغي أن يتم

سرياً، برسالة يحملها الأمين لعام للأمم المتحدة تنص على أن حركة الملاحة عبر مضائق تيران تعد من أهم المصالح والحقوق القومية التي تؤكدها إسرائيل وتدافع عنها مهما كانت التضحيات». (٤٠)

## الإغلاق

لم يظهر عبد الناصر أبداً ما إذا كان غير راض عن سحب قوات الطوارئ الدولية كلياً أو جزئياً. كما أن الفورة العربية الداعمة لذلك الحدث والتي دبت الهلع في قلوب الإسرائيليين، ترفع الزعيم المصري العظيم على رأسها. وفي حين أن من أهداف هذه الحركة إزالة قوات الطوارئ الدولية، كان لها جانب آخر خطير هو إغلاق مضائق تيران. صنع الهدف الأول نصراً سياسياً، أما الآخر فيمكن أن يقود إلى حرب. قال خبير الشؤون المصرية في وزارة الخارجية البريطانية معلقاً فيما بعد: «هنا تظهر شخصية عبد الناصر. فالمرء يستطيع الرد على الفشل بتقليل الخسائر أو بمضاعفة الرهان؛ أضف إلى النجاح بالحصول على ما تربح، أو بمحاولة مضاعفة أرباحك.. وناصر كان دائماً مقامراً في لعبة النجاح والفشل». (٤١)

في هذه المقامرة، بوجه خاص، كان الرهان عالياً جداً. فعلى الرغم من أن المصريّ العادي لم يكن يعلم بأن السفن الإسرائيلية كانت تبحر عبر المضائق منذ العام ١٩٥٦ -لأن ناصر لم يعترف بذلك علنا قط- ولا يعلم حتى أين تقع تيران، فإن المماحكة الأردنية والسعودية كانت بغيضة عند القادة المصريين. فهي تذكرهم بفشلهم في إنجاز المهمة التي أخذتها مصر على عاتقها في العام ١٩٤٩ وهي «أن تبقي اليهود خارج الخليج» والاحتفاظ بالعقبة كبحيرة عربية. وأسفر ذلك الفشل عن ظهور إيلات كميناء مزدهر. فبفضل متاخمته للبحر الحمر، أنشأت إسرائيل مواطئ قدم لها في التجارة مع آسيا وإفريقيا، المجالين التقليدين للمصالح المصرية، واستوردت النفط من شاه إيران، المنافس الشخصي لناصر. فقد دخل الميناء خلال السنتين السابقتين وحدهما حوالي ٥٤٠٠٠ طن من المحمولات، وخرجت منه حوالي ٢٠٧٠٠٠ طنا، ورست فيه حوالي ٥٠٠ سفينة.

وللانتقام من هذه الإهانة، رفضت مصر التوقيع على معاهدة جنيف للعام ١٩٥٨ التي تضمن عالميّة مضائق تيران وحرية الملاحة الدولية فيها. وسبب عدم التوقيع، كما قالت القاهرة، هو أن إسرائيل احتلت إيلات بصورة غير شرعية، بعد توقيع الهدنة الدائمة، وحصلت على حرية الملاحة فيها عن طريق حرب عدوانية. لم يكن مسموحاً لإسرائيل شحن مواد حربية عبر المناطق المصرية، ولم تكن الأمم المتحدة قادرة على حماية مكاسب إسرائيل غير الشرعية. (٤٢)

كان ناصر تواقاً لحصار المضائق، ومنذ السابع عشر من مايو (آيار) حين كانت قوات الطوارئ الدولية مازالت تحرس المضائق، قرر أن يعيدها إلى وضعها السابق. بيد أن تنفيذ ذلك القرار يعد أمراً مختلفاً تماماً. لم ينس عبد الناصر ذكريات العام ١٩٥٦ عندما اخترقت قوات جيش الدفاع الإسرائيلي الخطوط المصرية في سيناء وهي في طريقها إلى شرم الشيخ.

والآن، بعد ورود تقارير عسكرية تفيد بأن إسرائيل قد استكملت حشدها تقريباً، لم يعد بالإمكان التغاضي عن احتمال غزو آخر. قال عبد الناصر لكبار قادته العسكريين والمدنيين في لقاء معهم في بيته منتصف الليل في ٢١ مايو (آيار): «إذا كان طرد قوات الطوارئ الدولية زاد من فرصة نشوب الحرب إلى ٢٠٪ فإن إغلاق مضائق تيران سوف يرفع ذلك الاحتمال إلى أكثر من ٥٠٪. والسؤال هو هل الجيش مستعد؟!».

وجاء الرد بدون تردد من عامر الذي قال: «برقبتي، الجيش مستعد للوضع دفاعياً وهجومياً». فطالما أن إسرائيل ستهاجم المضائق على أية حال، فإن مصر لا تخسر شيئاً بإغلاقها؛ هكذا شرح المشير الأمر. أما الفشل في إغلاقها، من جهة أخرى، فيعد عاراً على مصر. ووبخ عامر رئيس الوزراء سليمان، المهندس بالتدريب، عندما قال: إن منع المرور عبر المضائق ربما لا يكون في صالح مصر قائلاً باستغراب: «كيف يمكن لقواتي المتمركزة هناك (في شرم الشيخ) رؤية العلم

الإسرائيلي يمر من أمامهم؟» وبعد أن أرسل عامر تلك القوات إلى هناك مهملاً نصيحة هيئة أركانه، قال: «الأمر الآن.. يستلزم إغلاق المضائق». وبسبب سلطته، وليس بسبب حجته، منطقه لم يستطع أحد المسؤولين الحاضرين معارضته. (٤٣)

ولم يعترض عبد الناصر رغم أنه هو الوحيد الذي يستطيع المعارضة. لم يعثر على أي تسجيل يذكر تحفظاً للزعيم المصري على الإغلاق، ولا حتى في كتابات المدافع عنه، محمد حسنين هيكل. والواقع أن هيكل وعامر وبدران (Badaran) ومحيي الدين (Muhieddin) كانوا موجودين في اليوم التالي في قاعدة أبو سوير (Abu Suweir) الجوية حيث حيا عبد الناصر مجموعة من الطيارين، المتحمسين. وأخبرهم بتلقي «معلومات دقيقة» بقرب غزو إسرائيل لسورية، وبقراره طرد الـ UNEF، القوة التي تخدم الاستعمار، من سيناء. كتأكيد لحقوقنا (حقوق مصر) وسيادتنا على خليج العقبة» ثم جاءت خلاصة القول: «يشكل خليج العقبة مياهاً إقليمية مصرية. وسوف لن تسمح تحت أية ظروف للعلم الإسرائيلي المرور في خليج العقبة. هدد اليهود بالحرب. ونحن نقول لهم: أهلاً وسهلاً، نحن مستعدون للحرب. قواتنا المسلحة وشعبنا كله مستعد للحرب، ولكننا لن نتنازل عن حقوقنا تحت أية ظروف. هذا الماء لنا».

ما إن نطق عبد الناصر هذه الكلمات حتى طارت البرقيات إلى الحكومات العربية تخبرها بقرار مصر، وتطلب مساعدتها في إحباط شحنات النفط إلى إسرائيل.

وأعلن راديو القاهرة «أن ألغاماً بحرية بُثَّت في مناطق معينة في المياه الإقليمية المصرية». ورفعت درجة الاستنفار إلى الحد الأقصى. وأرسلت بناء على أوامر من عبد الحكيم عامر تعليمات إلى الأسطول كي يرسل مدمرة وعبَّارة من قوارب الطوربيد لسد مضائق تيران أمام السفن الإسرائيلية الطليعية أو أمام ناقلات النفط الآتية إلى إيلات. وقال في تعليماته: «تطلق على هذه السفن طلقتين تحذيريتين، فإن لم يستجب، تطلق عليها عيارات تصيبها بأضرار، وإن لم تستجب،

تغرق». يقول محمد عبد الحافظ، أحد قادة المظليين في شرم الشيخ، متذكراً: «صدرت إلينا أوامر إغلاق مضائق تيران. التحق بنا مئة مدفع مؤلل من طراز SU، وأربعة مدافع بحرية ثقيلة.. ومدمرة، وستة زوارق طوربيد، وغواصة، انتشرت على الشواطئ بالإضافة إلى سرب من طائرات ميغ -٢١ من لواء الهرغادة (Harghada)..

وأمرنا أن نطلق عيارات تحذيرية، فإن يتوقفوا، نرميهم بطلقات أقرب إليهم وهكذا..» كان حافظ فخوراً بهذا العمل، رغم أنه لم يكن يعلم أبداً بوجود قوات الطوارئ الدولية في المنطقة أو بأن إسرائيل كانت تتمتع بحرية الملاحة عبر المضائق. ويتابع القول: «كان إغلاق المضائق، بالطبع، إعلاناً للحرب.. لكننا لم نكن نعلم ذلك في تلك اللحظة، بل نفذنا الأوامر بدون أي تساؤل». (٤٤)

ساد الابتهاج الوطن العربي كله حيث ترددت عبارة «أهلاً وسهلاً». غمرت شوارع القدس والخليل وبغداد وبيروت وطرابلس مظاهرات جماهيرية مهللة لعمل مصر. وفُعّلت القوات المسلحة في كل من لبنان والكويت والسعودية. وذكر أن أرتالاً عراقية مسلحة تحركت نحو الحدود السورية والأردنية «لتشارك في معركة الشرق». لبس الملك حسين زيا عسكريا واستعرض وحدات من الفيلق العربي ومن بينها دبابات أمريكية، من المفروض ألا تعبر نهر الأردن، وهي تشير في اتجاه الضفة الغربية. (٤٥)

لم يشارك يوتانت العرب بهجتهم. إذ علم بإغلاق المضائق أثناء توقفه في باريس في طريقه إلى القاهرة، شعر بإهانة كبيرة، وفكر أن يلغي رحلته، ولكنه صمم في النهاية على متابعتها عساه يثني عبد الناصر عن قراره أو يجعله يَعدُ بألا يكون أول من يطلق النار.

حطت طائرة يوتانت في مطار القاهرة الدولي بعد ظهر يوم الثلاثاء في ٢١ مايو، أي بعد أسبوع تماماً من تلقي ريكهاي (Rikhye) أوامر الإخلاء.

كان في استقبال يوتانت مئات من الناس يهتفون «عاش عبد الناصر» و«نريد الحرب» أثناء نزوله على أرض المطار، من بين المستقبلين كان محمود رياض الذي كان مستعداً لبدء محادثات على الفور. ولأن يوتانت، كان مرهقاً، أرجأ اللقاء مع وزير الخارجية حتى الساعة ٩,٤٥ صباح اليوم التالي.

كان الصباح بارداً صافيا عندما عبرت سيارة يوتانت، الليموزين -التي تحمل لوحة UNEFI- نهر النيل عند جسر الجامعة، مارة بالسفارة السوفياتية ،إلى أن وصلت إلى فندق سميرا ميس حيث المقر المؤقت لوزارة الخارجية. ومع ذلك لم يكن رياض متفائلاً، أبداً. لقد رفض تطمينات أمريكية بعدم وجود أية حشود إسرائيلية في الشمال، معتبراً إياها لا قيمة لها، وأصر على أن هناك مؤامرة لاحتلال جنوب سوريا وفرض قوات طوارئ دولية هناك كذلك. إن إعادة عسكرة سيناء تهدف لجعل إسرائيل تفكر مرتين قبل القيام بأي عدوان، كما قال رياض. ولكن تصرف مصر قد خدم أيضاً غاية أخرى، هي: «إسدال آخر ستار على العدوان الإسرائيلي في العام ١٩٥٦». لن تتم إعادة ذلك الستار حتى ولو كلف الأمر خوض حرب. سوف تطرد قوات الطوارئ الدولية من التراب المصري «بالقوة، إذا لزم الأمر»، وسوف تمنع السفن الإسرائيلية من الإبحار إلى إيلات. لم يترك رياض مجالاً كبيراً للدبلوماسية. فعلى الرغم من أن مصر كانت راغبة في بحث احتمال إنعاش اتفاقية الهدنة وآليتها، فإنها رفضت أي إجراء -كترسيم الحدود، مثلاً- يمنح إسرائيل اعترافاً بها أو يقلل من حالة الحرب.

أتاح يوتانت، الذي كان يدخن سيجاراً، لرياض أن يكمل حديثه قبل أن يعرض فكرته بتجميد الأوضاع لمدة أسبوعين أو ثلاثة: لا تغلق مصر المضائق ولا تحاول إسرائيل عبورها. سوف يوفر هذا التعليق- على غرار أزمة الصواريخ الكوبية- وقتاً لتعيين وسيط دولي من أجل التوصل إلى حل سلمي.

كان رد فعل رياض مشوباً بالشك. إذ أكد القول بأن على الحكومة ألا تبدي تردداً أمام شعبها، وخصوصاً أمام الجيش الذي كان مصمما على الدفاع عن القضية العربية. ولم يكن للرسالة التي حملها يوتانت من إشكول والتي مفادها أن إسرائيل سوف تفتح المضائق عسكرياً، أي أثر على وزير الخارجية.

تناول يوتانت طعام الغداء مع مضيفه الدكتور محمد فوزي في نادي التحرير حيث أبلغه فوزي بأن لقاءه مع عبد الناصر سيكون في المساء بعد العشاء. فإن كان الأمين العام للأمم المتحدة قد استاء من هذا التأخير، فإنه لم يصدر عنه ما يدل على ذلك.

كان مولعاً بعبد الناصر، يجده «بسيطا جداً، ساحراً، مؤدباً.. قائداً حقيقياً لشعبه»، ولم ينس قط لقاءهما الأول في رانغون (Rangoon) حيث قبل المصري ارتداء الزي البورمي التقليدي، وأن يتبلّل بالماء أثناء حضوره احتفالاً مائيا. كان ذلك الولع بادياً عندما بدأت المحادثات في بيت الرئيس الساعة العاشرة. قبل يوتانت، على الفور، تعليلات ناصر بأنه كان قد قرر إعلان إغلاق المضائق من قبل زيارة الأمين العام للأمم المتحدة، وليس قبلها كي يجنب ضيفه الإرباك والإحراج. فلو طلب يوتانت من عبد الناصر أن يحجم عن إغلاق المضائق، لَصَدَّه.

كرر عبد الناصر كثيراً مما قاله رياض من قبل، أي أن الحشد في سيناء استلزمته مخططات إسرائيل ضد سورية، والكرامة العربية والشرف العربي. واعترف أنه يحلم بأخذ زمام المبادرة وتوجيه سؤال إلى جنرالاته إن كانوا مستعدين لمهاجمة إسرائيل. وكان جوابهم كما يذكر عبد الناصر «لم نكن في حال أفضل مما نحن عليه الآن. قواتنا جيدة التسليح والتدريب. وسوف نفوز بكل منافع البدء بالهجوم أولاً.

نحن متأكدون من النصر» سأل ناصر، وقد هزّ كتفيه، يوتانت، قائلاً: «يقول جنرالاتي بأنهم سوف يكسبون الحرب- فماذا تقول لهم؟» ولكن يوتانت أجاب بابتسامة.

ثم ألقى عبد الناصر خطبة مسهبة قرَّع فيها الولايات المتحدة التي اتهمها بشن «حرب تجويع» ضد مصر، وبمحاولة الإحاطة به وبالحلف الإسلامي، وبأنها وراء الحشود الإسرائيلية. وفيما يتعلق بإسرائيل، فليس لها أي حق شرعي بإيلات وليس لها أية حاجة بالبحر الأحمر. فالنفط تستطيع استيرداه عبر ميناء حيفا.

وأكد أن إبعاد الـUNEF عن الحدود يعني إخراجها من شرم الشيخ كذلك -ولم يأت على ذكر طلب بإعادة انتشار هذه القوة فحسب- وهذا بدوره يعني الحرب. وكرر وعده بأنه لن يكون من يطلق النار أولاً. «ليس لدينا نية في الهجوم ما لم نهاجم، وعندئذ سوف ندافع عن أنفسنا.. لن نهاجم أولاً. ووافق فيما بعد أن يعطي تعليمات لقواته في تيران أن يكونوا طيبين ويراعوا التوقيف شريطة أن تراعيه إسرائيل كذلك».

وانتهى الاجتماع بطريقة غريبة، إذ عرض ناصر ثانية تقليد قوات الطوارئ الدولية أعلى وسام مصري على خدماتها المتميّزة، وطلب السماح له بشراء معداتها الفائضة. دهش يوتانت بهذا العرض، ولكنه ظل متفائلاً.

وبين لريكهاي (Rikhye) الذي كان قد استنتج مما جرى من بحث، بأن، «عبدالناصر ووزير خارجيته وغيره من قادة الجمهورية العربية المتحدة قد أكدوا له احترامهم الكبير لمنصب الأمين العام للأمم المتحدة الذي يتمتع باحترامهم البالغ له شخصياً وبشعبية واسعة في العالم العربي.»

ولم يبق إلا أن تقبل إسرائيل ذلك. ولكن ريكهاي لم يشاركه هذا الأمل.

إذ كان قائد الـ UNEF السابق يرى أن عبد الناصر ضعيف ومشتت، وكأن الجيش، وليس الرئيس، هو صاحب السيادة. ولدى سؤاله حول انطباعه عن اللقاء قال ريكهاي: «أعتقد أنك ستشهد حرباً شرق أوسطية كبرى، وأعتقد أننا سنقضي خمسين عاماً من الآن حتى نتخلص من نتائجها الوخيمة». (٤٦)

## رابين ينتظر

وافق إسحق رابين بصورة أكيدة بأن هناك آفاقاً للحرب، على الأقل. وصلت أنباء إغلاق المضائق إلى المخابرات العسكرية لجيش الدفاع الإسرائيلي في الساعة ٢,٣٠ بعد ظهر الثالث والعشرين من مايو، إضافة إلى تقارير مفادها: أن غواصة مصرية

عبرت المضائق، وأن مدافع ثقيلة قد نصبت في شرم الشيخ. وفي مرتفعات الجولان، كانت القوات السورية في أقصى درجات قوتها ورسوخها الحربي. وكانت حركة المراقبين الدوليين قد قُلِّصت تقليصاً شديداً. وقال رئيس الأركان: «إن القطعة الأساسية في أحجية الشرق الأوسط وهي، إعطاء عبد الناصر ذريعة للحرب - قد وضعت في مكانها. وعمليا أصبحت الكرة في ملعبنا..» وكان في الرهان، كما يعلم، أكثر من مجرد قضية حرية المرور اوزدهار إيلات. «بل المسألة الآن هي مسألة وجودنا القومي؛ نكون أو لا نكون». كما قال لجنرالاته تلك الليلة. (٤٧)

ومازال إشكول يرفض الموافقة على القيام بضربة استباقية. ولدى إيقاظه قبل الفجر من قبل الكولونيل ليور الذي قال له: «سيدي، لقد أغلق المصريون المضائق». هرع رئيس الوزارة إلى الحفرة (بالعبرية: بور) تحت مقر قيادة جيش الدفاع الإسرائيلي في تل أبيب. وكان بانتظاره هناك رابين وهيئة الأركان العامة وجو متوتر مشحون بالتوقعات.

بدأ الحديث رئيس المخابرات، ياريف (YARIV) قائلاً: «لقد انتهت فترة حملة ما بعد سيناء.. فإذا لم تتصرف إسرائيل رداً على حصار المضائق فإنها سوف تخسر مصداقيتها ويفقد جيش الدفاع الإسرائيلي مقدرته الرادعة. وسوف تفسر الدول العربية ضعف إسرائيل بأنه فرصة رائعة لتهديد أمنها ووجودها بالذات». ثم تكلم وايزمن (Weizman) فقال: «يجب أن نضرب الآن وبسرعة.. يجب أن نوجه للعدو ضربة قاضية، وإلا فإن قوى أخرى سوف تلتحق به» واخيراً تكلم رابين، قائلاً: «يعتمد الموقف السوري والأردني على نجاح تحرك مصر». ثم وجه الكلام إلى إشكول قائلاً: «يمكن لجيش الدفاع الإسرائيلي إما أن يحتل غزة، ويساوم عليها، أو يدمر الجيش المصري. وفي الحالتين يجب أن يفتتح المعركة بهجوم مفاجئ على القوة الجوية المصرية. وعلينا أن نعترف بالحقيقة. سوف نضرب مصر أولاً، ثم نقاتل سوريا والأردن كذلك».

فهم إشكول الآن أن الوقت لم يعد لصالح إسرائيل وأن الجيش ينصح بالقيام بضربة استباقية. ولكن المنظور أربكه بصورة جديّة وخطيرة.

ففي حين تقوم الطائرات الإسرائيلية بضرب مصر، يكون شمال إسرائيل معرضاً للنار السورية، ويمكنها إزالة مستوطنات بأكملها. والذي كان يقلقه أكثر هو أن جونسون مازال يعارض أي نوع من العنف. وهكذا بعد قبوله لنصيحة الجنرالات، قرر الانتظار مرَّة أخرى. إذ كان من المتوقع أن يصل صهريج من النفط إلى إيلات في غضون أسبوع، وعندها يتحدى الحصار إذا لزم الأمر. وفي هذه الأثناء يقدم التماساً إلى واشنطن مرَّة أخرى. (٤٨)

والواقع أن واشنطن كانت قد ناشدت إشكول. إذ وصلت أثناء الليل رسالة أخرة من جونسون تحث إسرائيل على إظهار أعصاب ثابتة، مذكراً إياه بالتزامه ومن سبقه من رؤساء بأمن إسرائيل. ورغم أن جونسون أبدى أسفه لقرار يوتانت بشأن قوات الطوارئ الدولية فقد ذكر أن السوفيات يبدون تعاوناً، وأن الولايات المتحدة تسعى إلى إيجاد حل سلمي للأزمة، «داخل الأمم المتحدة أو خارجها» وإلى أن يتم التوصل إلى حل رغبت الولايات المتحدة في تزويد إسرائيل ببعض المعدات -١٠٠نصف مجنزرة ودبابة باتون، وصواريخ هوك وغذاء ومساعدات اقتصادية تبلغ قيمتها ٤٧,٣ مليون دولار بالإضافة إلى قرض بقيمة ٢٠ مليون دولار- لمساعدة إسرائيل في محنتها. جاءت هذه الصفقة بمشكلة صعبة، على أية حال: فإسرائيل لا تستطيع تحدي الحصار بسفينة اختبار أو لا تستطيع تحت أية ظروف أن تسرع نشوب الحرب.

«فأي عمل إسرائيلي انفرادي لا يسوَّغ إلا بعد استنفاد كل الإجراءات السلمية»، وحذر روستو (Rostow)، معاون وزير خارجية الولايات المتحدة إبي إيفرون (Eppy Evron) قائلاً: «إن مثل هذا التبرير لا بد وأن يعرض أمام شعب الولايات المتحدة وشعوب العالم». (٤٩)

لقد ألقت الرسالة ضوءاً على التزام إشكول: بإقناع العالم بأنه لا بد من العمل، وأن يقنع الإسرائيلين بأسباب عدم قيامه بعمل. كانت تلك الأزمة المؤلمة واضحة في الاجتماع الثاني للجنة الدفاع الوزارية. كانت حكومات إسرائيل منذ العام ١٩٤٨ حكومات ائتلافية، ولم تكن حكومة إشكول استثناءً. فإلى جانب الوزراء من الحزب الاشتراكي الوسطي، حزب ماباي -أكبر عدد له في الوزارة- كان هناك أعضاء من حزب مابام الاشتراكي الراديكالي (حزب العمال المتحدين) ومن الحزب الاشتراكي العسكري أحودات ها-أفودا (Ahdut Ha- Avoda) (اتحاد العمال)، والحزب الديني المراقب، المعتدل سياسيا، حزب المفدال (Mafdal) (الحزب الديني القومي). كانت هذه الفصائل ممثلة في لجنة الدفاع، ولكن وبسبب وجود الأزمة، حضر ممثلون عن المعارضة كذلك -مناحم بيغن- (Menachem Begin) من الحزب اليميني غاحال (Gahal) بالإضافة إلى موشي دايان وشمعون بيريز وكلاهما من حزب رافي (Rafi) وهكذا كان في مجلس الوزراء طيف واسع من الآراء، وكانت الانقسامات بينها عميقة.

افتتح رابين الجلسة. وأخبر اللجنة، مقطباً، أن المضائق سوف تغلق رسميا الساعة ١٢,٠٠ في ذلك اليوم. وبما أن قوة إسرائيل الرادعة ضعيفة فبإمكان عبد الناصر أن يفرض زمان ومكان أية مواجهة ويحول وضعية قواته من الوضعية الدفاعية إلى الوضعية الهجومية في غضون ساعات. وهكذا، إذا ما حاول جيش الدفاع الإسرائيلي الاستيلاء على المضائق، فإن المصريين -وربما السوريين والأردنيين- سيضربون إسرائيل ذاتها. الوضع الآن بعكس ما كان عليه في العام ١٩٥٦:

إذ حينذاك، كانت مصر وحدها تواجه إسرائيل المتحالفة مع بريطانية وفرنسا، أما الآن فإسرائيل المعزولة وحدها تواجه مصر ودولاً عربية عديدة. وهناك احتمال تدخل السوفيات أيضاً. واختتم رابين حديثه بقوله: «إننا لا نتحدث عن نزهة في متنزه. «ولكن يبدو ألا خيار لنا سوى أن ندمر القوة الجوية المصرية بضربة مفاجئة نتبعها بتقدم قواتنا البرية إلى سيناء».

وانهال على رابين وابل سريع من الأسئلة. لنفرض أن إسرائيل هاجمت سوريا فما هو الضرر الذي يمكن أن تلحقه سوريا بإسرائيل في حين أن الطيران الإسرائيلي مشغول بقصف مصر؟ كيف تستطيع إسرائيل التصرف وحدها بدون حليف من إحدى القوى العظمى؟ ثم أبرز وزير التعليم، زلمان أران (Zalman Aran) من حزب ماباي أكثر المشاهد رعباً: «هل من المحتمل أن تباد قوتنا الجوية التي بدونها تصبح البلد مكشوفة لا يمكن الدفاع عنها؟».

بذل رابين المنهك جهده ليجيب على هذه التساؤلات، فقال: «لا. إسرائيل لن تهاجم سوريا رغم توقعنا بأن سوريا تقوم بقصف مدفعي مكثف، نعم، سيكون الضرر بالغاً إلى أن تستطيع القوة الجوية الالتفات إلى الشمال. وفيما يتعلق باحتمال إسقاط الطائرات الإسرائيلية بدلاً من قيامها بتدمير القوة الجوية المصرية، فقد أحال التساؤل إلى وايزمن. رغم أن وايزمن البالغ من العمر ٤١ عاماً الذي يشغل الآن منصب رئيس العمليات في جيش الدفاع الإسرائيلي كان يعمل سابقاً طياراً في سلاح الجو الملكي، وقاد سلاح الطيران الإسرائيلي معظم العقد المنصرم، وكان المهندس الرئيسي لخطة فوكس (Focus). استبعد وايزمن هذا الخليع المتهور اللامتواضع مخاوف أران، قائلاً: «سيخسر سلاح الجو الإسرائيلي ٢٠ طائرة من أصل ٦٠٠»، ثم أردف قائلاً: ليست هناك دولة تستطيع إغلاق أجوائها عملياً، وبالتالي فإن موجة الطيران الإسرائيلي الأولى سوف تخترق الأجواء من غير أن تكشف.

لم يفلح تبجح وايزمن في إقناع حايم موشي شابيرا (Haim Moshe Shapira) وزير الداخلية. كان شابير البالغ من العمر ٦٥ عاماً من الحمائم الصريحين الذين يعارضون سياسات إشكول الدفاعية النشطة تجاه سوريا. فذكر رابين كيف أنه اعتقد ذات يوم بأن سوريا تقف وحدها ويمكن تلقينها درساً بسهولة، أما الآن فسوريا لم تعد وحدها وأن درساً كهذا ربما يقود إلى الحرب، وأردف قائلاً: «أنا مستعد للقتال، ولكن لست مستعداً للانتحار».

كان إلى جانب الجيش كل من موشي كارمل (Moshe Garmel)، وزير النقل، وإسرائيل غاليلي (Israel Galile) الوزير بلا حقيبة.

ودعا كلاهما إلى إعلان الحرب ضد مصر. أما بيغن الصريح في آرائه العسكرية، فقد عبر عن دعمه لضربة استباقية، وكذلك شمعون بيريز أيد الفكرة.

كان إشكول أثناء هذا الحوار يجلس شاحب الوجه متوتر الأعصاب قلقاً، قلقاً قلقاً» كما قال ليور، مدركاً أن مستقبله الشخصي وربما مستقبل البلاد على شفا هاوية. انقلب الرأي العام ضده وطالبه الشعب بالاستقالة من منصب وزير الدفاع إن لم يكن من منصب رئيس الوزارة أيضاً لصالح بن غوريون. ولكيّ يسترد إشكول ثقة الجمهور به حَذَّر الكنسيت بأن «أي تدخل في حرية الملاحة عبر المضائق يشكل خرقاً فاضحاً للقانون الدولي وضربة لحقوق سيادة الدول الأخرى، وعملاً عدوانياً ضد إسرائيل.» ولكن خلف هذا الوعيد العاصف كان يكمن الخوف من الحرب.

قال مذكراً مجلس الوزراء إن العرب يتفوقون على إسرائيل في المدرعات والطيران بنسبة ثلاثة -إلى- واحد: «ما الذي يوقف مصر عن احتلال الجنوب؟ والسوريين عن مهاجمة مستوطناتنا؟» بدا رئيس الوزراء وكأنه يحدث صدوعاً في نفوس حكومته. إذ أكد ضرورة إفهام العرب بأن «اليهود لا يقفون هنا يثغون (كالغنم) بل يجادلون استشكاف كل الخيارات الدبلوماسية. واعترف أنه عازف عن إثارة صدام أو عن الاعتماد على الوعود الدولية. فقد قال: «لا نريد الحرب، ولكن إن قصفنا العرب -ولا يهم عندئذ ماذا يقصفون- علينا أن نرد بسرعة وبغزارة. «ثم تساءل عما إذا كان بالإمكان تأجيل الانتقام إلى أن تحصل إسرائيل على مزيد من السلاح».

بدا إشكول وكأنه غارق في ورطة، ثم أنقذه منها أبا أيبان. إذ وافق وزير الخارجية على أن القضية ليست إيلات بل الردع. وأكد في مذاكراته قائلاً: «إن أمة لا تستطيع حماية مصالحها البحرية ربما تجد سبباً لعدم صد هجمات أخرى على

حقوقها. وما لم يتخذ موقف هنا، فإن أحداً من العرب لن يؤمن أبداً بقدرة إسرائيل على المقاومة» ومع ذلك عارض إيبان القيام بعمل عسكري يحتمل ألاَّ تدعمه الولايات المتحدة، مع احتمال مقاومة السوفيات له - أي أنه عارض إعادة أزمة السويس.

وأخبر مجلس الوزراء بالطلب الذي تلقاه من واشنطن: ستقبل إسرائيل فترة ٤٨ ساعة للتشاور تدرس خلالها الولايات المتحدة حشد أسطول متعدد الجنسيات لمرافقة السفن الإسرائيلية أثناء عبورها مضائق تيران. وأشار قائلاً: إن الخطة هذه أكثر من وعد إيزنهاور بدعم إسرائيل في دفاعها عن نفسها. واختتم إيبان كلامه بفصاحته المتميزة قائلاً: «إن الثقل التاريخي لهذه اللحظة -وربما لا تأتي لحظة مثلها في التاريخ اليهودي- تتطلب منا أن نتخذ هذه الخطوة؛ وإلاَّ لن نقدر لأجيال عديدة قادمة، أن نفسر لأنفسنا ولغيرنا فشلنا في وضع «الإغلاق» على المحك».

كان الاقتراح الأمريكي سيطرح على التصويت ولكن ليس قبل أن يقول دايان كلمته. تكلم دايان بفظاظة ومازال يرتدي الزي العسكري الذي كان يرتديه في رحلته إلى الجبهة الجنوبية حيث وجدته الشرطة العسكرية واصطحبته إلى القدس. لقد عارض «الطرق على أبواب القوى العظمى» ومنح المصريين مزيداً من الوقت ليرسخوا أقدامهم» وقال ساخراً: «نحن لسنا انكلتر بتراثها المليء بخسارة معارك كبرى أولاً». ومع ذلك أيد فترة التأخير لمدة ٤٨ ساعة، إذا كان ذلك يرضي الأمريكيين، على أن يشن هجوم جوي وبري بعدها على مصر. واقترح قائلاً: «علينا أن ندمر مئات الدبابات في معركة تدوم يومين إلى ثلاثة أيام» وأن نكون مستعدين للهجمات المضادة من الأردن وحتى من العرب الإسرائيليين».

انفض الاجتماع بعد أن أخذ قرار بتأجيل العمل العسكري لإعطاء إيبان فرصة للحصول على دعم العواصم الغربية وفي مقدمتها واشنطن لموقف إسرائيل. وفي هذه الأثناء، أخذت الحكومة تعمل على التقليل من حدة الأزمة -فأوقفت مناقشات الكنيست، وتابعت الاحتفالات الرسمية- في حين كانت تستكشف إمكانية إيجاد

مجلس وزراء يمثل الوحدة الوطنية ويضم المعارضة. وسوف يجري الإعداد لعملية «أتزمون (Atzmon) (احتلال غزة والمقايضة عليها لقاء حرية الملاحة.)؛ واستدعاء٣٥٠٠٠ جندي احتياط، وما عدا ذلك «يستمر الانتظار».

فقط عندما تبدأ مصر بالهجوم بقصف المطارات الإسرائيلية أو أهداف استراتيجية ترد إسرائيل عليها بكل قواتها. (٥٠)

سلك إشكول مساراً وسطاً بين الحرب والدبلوماسية، ولكن سلوكه هذا لم يرض أحداً. فهناك عدد من وزراء الماباي، ومن بينهم أران (Aran) لم يوافقوا على اختيار إشكول إيبان كمبعوث خاص له معتقدين أنه غير كفوء وغير جدير بالثقة. وفي غرفة العمليات كان الجنرالات، في تلك الأثناء، يشكون من عدم حسمية الحكومة. لقد أنجزت الخطط للشروع بعملية فوكس (Focus) والتقدم في سيناء، وعلى الجبهات الأخرى إن لزم الأمر- وإلى منابع الأردن في الشمال وممر اللطرون المؤدي إلى القدس. نجاح كل هذه العمليات معلق على كسب عنصر المفاجأة المعلق بدوره على كلمة إشكول الذي ما زال متردداً في إعطائها.

ولرابين (Rabin) أيضاً هواجسه- هواجسه العميقة. ففي حين يعلم أن إسرائيل لا تستطيع تجاهل مناشدة مباشرة من الرئيس الأمريكي، كان متيقنا من أن الثماني والأربعين ساعة ستنقضي قبل أن يتم إيبان مهمته. وكانت الأخبار في غضون ذلك مرعبة. لقد أتمت الفرقة الرابعة المصرية انتشارها في سيناء، وزرعت المضائق بالألغام. وكان القادة العرب ينظمون تطويع جيوشهم «ليغسلوا بدمائهم تسعة عشر عاماً من العار في فلسطين» حسب تعبير رجال الدين المصريين في مواعظهم.

أصبح عبء اتخاذ القرار ثقيلاً جداً على رابين. إذ أيقظ إشكول من قيلولته بعد الظهر، بعد ساعات قليلة من انفضاض اجتماع وزاري، ليقول له: إنه قد غيَّر رأيه: «يجب أن تشن إسرائيل الحرب». فسأله رئيس الوزراء: «أليس من مخرج آخر؟» فأجابه رابين مقطباً: «سوف نمنى بخسائر فادحة ولكن ليس أمامنا خيار آخر». لكن إشكول لم يقتنع بعد، فقال رداً عليه:

«سوف لا يقوم سلاح الجو الإسرائيلي بهجومه قبل استنفاد الخيارات السياسية» ولم يمنحه الموافقة على القيام بالضربة. انهارت دفاعات موقف رابين بسرعة.

وانتشرت أغنية تحريضية معنوية في شوارع إسرائيل مع ترديد لازمتها: «ناصر بانتظار رابين»، ولكن الحقيقة كانت غير ذلك تماماً، كما قال رابين في مذكراته: «إذا كان ناصر بانتظار رابين، فإن رابين كان بانتظار إشكول وإشكول بانتظار مجلس وزرائه، ومجلس الوزراء بانتظار إيبان وإيبان بانتظار الرئيس جونسون..». (٥١)

كانت الساعة القادمة محمومة. قال ليور: «تصاعد التوتر، وتصاعد وتصاعد. وانهالت الرسائل من مختلف أنحاء العالم. ولم ينقطع رنين الهواتف.. وتسارعت عقارب الساعة». اجتمعت هذه الكتلة الهائلة من الضغوط على رابين، إضافة إلى عبء اللوم الذي وجهه إليه بن غوريون أولاً.

وذكَّره حايم موشي شابيرا قائلاً: «سوف تقاتل مصر على جبهة واحدة، أما نحن فسوف نقاتل على جبهتين أو ثلاثة. وسنكون الآن معزولين تماماً، ولن نتلقى إمدادات من السلاح إذا نقص السلاح عندنا أثناء القتال.. فهل تتحمل مسؤولية تعريض إسرائيل إلى الخطر؟ سأقاوم ذلك ما دمت أتنفس». (٥٢)

ما إن حل ليل الثالث والعشرين من مايو حتى انهار رابين، سواء بفعل كلمات شابيرا أو بفعل التقارير حول تعاظم التهديد المصري لإيلات. قال فيما بعد لصحفي إسرائيلي يصف حالته: «غرقت في محنة عميقة حلت عليَّ بفضل خطيئتي.. أني قدت بلادي إلى حرب في أصعب الظروف.. كل شيء كان على عاتقي، خطأ كان ذلك أم صواباً. لم أتناول شيئاً من الطعام منذ تسعة أيام. وكنت أدخن بلا انقطاع، وكنت منهكا جسميا» وعندما رأت زوجته ليه (Leah) حالته، منعته من قيامه بجولة في الجبهة الجنوبية، واستدعت رئيس أطباء الجيش الدكتور إلياهو جيلون (Eliyaho Gilon) الذي شخص حالته بالقلق المطبق، فوصف له مهدئاً.

أخفي أمر انهيار رابين عن الجمهور الإسرائيلي، ولم يشكف النقاب عنه إلا بعد سنين عديدة، وعزي إلى تسمم بالنيكوتين». استدعي وايزمن في تلك الليلة إلى بيت رئيس هيئة الأركان حيث وجد قائده «صامتاً ساكناً» مكتئباً. تماماً. تمتم رابين قائلاً: «لقد عرضت الدولة إلى الخطر.. إنها خطيئتي. أكبر حرب وأكثرها وحشية حتى الآن».

وفي تقرير جرى تصنيفه بعد ستة شهور، ادعى وايزمن أن رابين عرض عليه منصبه. لكن رئيس العمليات رفض، رغم أنه أشار إلى ضرورة الحفاظ على معنويات الأمة وإرشاد الحكومة إلى اتخاذ قرار شجاع لا مفر منه. أنكر رابين فيما بعد أن مثل هذا الحديث قد دار بينهما، ولكن حقيقة تقول: إن رئيس هيئة الأركان قد ضَعُفَ وأن رئيس عملياته كان هو المسؤول واقعياً. (٥٣)

حرر وايزمن رابين من تردده إذ وسع نطاق خطط هجوم الجيش. فبالإضافة إلى تدمير السلاح الجوي المصري واحتلال غزة، توسعت الخطة الآن لتشمل تقدم القوات الإسرائيلية غرباً إلى العريش، وإذا سمح الوقت، إلى ما بعدها باتجاه القناة. واستعدت القيادات الوسطى والشمالية لمواجهة تدخل الأردن أو سوريا. سوف تنطلق عملية الفأس (كردوم «Kardom») كما أطلق عليها في السادس والعشرين من مايو على الأكثر.

قال وايزمن إلى هيئة الأركان: «بحلول يوم غد ستكون قوات الدفاع الإسرائيلية جاهزة ومستعدة للحرب». وعبر عن ثقته التامة بأن الحكومة ستوافق على هذه الخطة. وقبيل منتصف ليل الخامس والعشرين كانت المدرعات الإسرائيلية تتدحرج نحو الحدود. (٥٤)

## «فجر» عامر

سيصاب وايزمن بخيبة أمل مريرة لأن إشكول لا ينوي الموافقة على خطة أكس (AXE). كما انزعج كثيراً بسبب انهيار رابين، وساوره الخوف من نشوب الحرب في وسط مهمة إيبان ومحادثاته، إضافة إلى أن رئيس الوزارة قد أمر بتقليص نشاط سلاح الجو الإسرائيلي في الجنوب، حتى إنه قيد طلعات الاستطلاع فوق سيناء.

في حين كتم إشكول الأمور، كان الضغط في القاهرة يتزايد من أجل الحسم. فقد علق محمود الجيار (Mahmud al-Jiyyar) أحد المسؤولين المقربين إلى عبد الناصر قائلاً: «بدت شوارع القاهرة كأنها كرنفال وليست مدينة تتهيأ للحرب». كانت المدينة مزينة بلوحات جدارية مثيرة تبين الجنود العرب وهم يطلقون النار على اليهود الملتحين ذوي الأنوف المعقوفة ويسحقونهم ويخنقونهم ويقطعون أوصالهم. وكان راديو القاهرة يردد بتفاخر: «خليج العقبة عربي تاريخيا، عربي بحماية جنودنا، عربي، عربي، عربي. كما استهدف الولايات المتحدة، قائلاً: «ملايين العرب.. يعدون لضرب جميع المصالح الأمريكية، والمنشآت الأمريكية. ووجودك ذاته يا أمريكا».

وبفضل حمى الحماس هذه، والتشجيع الناجم عن عدم وجود رد إسرائيلي أو امريكي على إغلاق مضائق تيران، تابع عامر خطة هجومه. فأسَرَّ إلى الجنرال مرتجى (Murtaga) أثناء جولة في التحصينات المتقدمة: «هذه المرَّة، سوف نبدأ نحن بحرب». بالإضافة إلى توجيه ضربات جوية إلى أهداف استراتيجية إسرائيلية وعزل إيلات، وسع عامر أهدافه لتشمل النقب بأسرها. وكانت الأوامر بالبدء بتنفيذ العملية الجديدة التي أطلق عليها الاسم الرمزي «الفجر» سوف تصدر من بيت عامر متجاوزاً بذلك مقر القيادة العليا. قال الجيَّار: «أفهم الآن أن شوارع القاهرة تعكس المفهوم الذي سيطر على القيادة، وهو أن تدمير إسرائيل ليس سوى لعبة أطفال ولا تتطلب إلاَّ إقامة مجموعة خطوط هاتفية في بيت القائد، وإبراق شعارات النصر». (٥٥)

كانت خطة عامر «الفجر» خرقاً لاستراتيجية ناصر في جر إسرائيل إلى أن تكون هي البادئة في الحرب. فلم لم يعترض عليها ناصر، إذن؟ انقسمت المصادر المصرية حول هذا السؤال - بل في واقع الأمر، حول معرفة عبد الناصر بالخطة أساساً. فالموالون لعبد الناصر، مثل هيكل، يصرون على أن عبد الناصر أراد مخططاً وبرنامجاً للهجوم، لم يشارك في وضعه مباشرة، بل وافق عليه ضمناً. أما الكتاب الذين ينتقدون عبد الناصر يؤكدون، على أية حال، أن عامر وحده ابتكر العملية كمعارضة صريحة لإرادة ناصر.

أما الحقيقة فتكمن في مكان ما بين الرأيين: لقد أحيط ناصر علماً بعملية «الفجر» ولكنه كان يفتقر إلى القوة السياسية لكي يتجاوز أوامر عامر. كما أن للإعداد لغزو مصر لإسرائيل منافع معينة لعبد الناصر، كما سنرى.

في المرحلة الأولى، ظهرت الاعتراضات الوحيدة على «الفجر» من الضباط الكبار الذين كان الكثير منهم يعتقدون أن إعادة عسكرة سيناء لم تكن سوى مناورة وتدريب عسكري، ولكنهم اكتشفوا الآن أن غاية ذلك كانت شن حرب.

إنَّ رئيس هيئة الأركان «فوزي» الذي عارض إعادة احتلال شرم الشيخ لكونه استفزازاً لا لزوم له، اعتبر عملية «الفجر» كارثية. إذ سأل نفسه مسترجعاً الأحداث في ذهنه، «هل للخطة أهداف سياسية؟» ثم أجاب نفسه بنفسه: «كيف يمكن أن يكون لها أهداف سياسية والصلة بين النسق السياسي والعسكري مقطوعة؟». (٥٦)

يعد تطبيق خطة «الفجر» تدميراً لخطة «القاهر» التي هي في الواقع استراتيجية مصر الدفاعية ذات المراحل الثلاثة. كان الجيش، الذي يفتقر إلى العدد اللازم من الجنود لإشغال جميع التحصينات والخنادق، يوجه ألوية بأكملها إلى مواقع هجومية متقدمة. و في اللحظة الأخيرة أدت أوامر متناقضة إلى تعميق الفوض التي دبت بسبب تدفق عشرات الآلاف من الرجال -الاحتياطيين، الذين أعيدو من اليمن حديثاً- وصل الكثير منهم في شاحنات أبقار، لا يحملون بنادق ولا يلبسون زيا عسكريا، ثيابهم مرقعة، وبطونهم خاوية. وعند ملتقى الطرق الحديدية في القنطرة شاهد الجنرال عبد الفتاح أبو الفضل نائب رئيس المخابرات العسكرية المصرية «أكواماً من الرجال والصبيان الضائعين بسبب إهمال قيادة القوات المسلحة ولا مبالاتها»، وتساءل مستغرباً: «أهذه هي حال قواتنا التي سنواجه بها عدونا إسرائيل؟».

كان حوالي ٢٠٪ من الدبابات المصرية، وربع قطع المدفعية، وثلث طائراتها غير صالحة للعمل، وأقل من نصف جنودها وصلوا إلى المواقع المعينة لهم. ومن هؤلاء، كُلِّف كثيرون بمهام لم تدرس، إلى مناطق غير مألوفة لديهم إطلاقاً. وقال فوزي في

مذكراته: «لم يكن هناك ترتيبات مسبقة للاتصالات، ولم تكن هناك تعليمات عسكرية للمدفعية أو لإدارة (المناطق التي يستولى عليها)، ولا خطة متعددة المراحل». ومع ذلك عندما احتج لدى عامر بأن «قواتنا لا تعلم شيئاً عن هذه الخطة»، صاح في وجهه قائلاً: «دَرِّبهم إذن». (٥٧)

كانت الفوضى واسعة جداً بحيث بدأ شخص مأجور مثل مرتجى بالتساؤل عن حكمة عملية «الفجر». إذ ظن، كفوزي أيضاً، أن غاية الجيش سياسية أكثر مما هي استراتيجية، وصدم عندما سمع بالهجوم المنوي شنُّه. فبين النقص في الطاقة البشرية، وقلة الإعدادات. ويذكر الجنرال أن «المشير عامر دهش لسماع جوابي» ولكن المشير ظل متمسكاً بخطته. كما أن صدقي محمود شكك في مقدرة طياريه على تنفيذ جميع الهجمات الجوية المحددة لهم، شاكياً إلى عامر:

«هجوم على إيلات.. هجوم على مفاعل ديمونة النووي.. على مصافي النفط في حيفا.. هل تظنني قائد سلاح الجو الأمريكي؟ فأنا لا أستطيع مهاجمة إيلات وقصف الساحل الإسرائيلي (بموجب عملية «الفجر») بآن واحد». (٥٨) ولم يتلق جواباً سوى الصمت.

مازال ناصر يرفض التدخل. إذ كان الرئيس مشغولاً جداً خلال الأيام التالية لقرار الإغلاق. فهناك وفود من البلاد العربية- رئيس وزراء سوريا، ووزير خارجية الكويت، ونائب الرئيس العراقي- لابد من استقبالهم وهناك رسائل دعم من الصين وفيتنام الشمالية وكوريا الشمالية لابد من الرد عليها. وكانت هناك اجتماعات يومية في مقر القيادة، وكلمات طنانة لا بد من إذاعتها .أباح القول إلى مؤتمر عمالي عربي: «كنا نعلم أن إغلاق خليج العقبة يعني الحرب مع إسرائيل. وإن نشبت الحرب فستكون شاملة وهدفها تدمير إسرائيل.. هذه قوة العرب». كما عزف ناصر على وتر «لصوصية» أمريكا، وعلى ما اعتبره هوس أمريكا بحقوق إسرائيل.

وتساءل تساؤلاً استنكارياً: «من هي إسرائيل؟» وأجاب بنفسه: «إسرائيل اليوم هي الولايات المتحدة». (٥٩)

لقد ازداد لوم ناصر لأمريكا حدَّة، وإن لم يكن ذلك جديداً، بسبب خطاب الرئيس جونسون المذاع في ٢٣ مايو، وصف فيه الحصار بأنه غير شرعي وأن تيران ممر مائي دولي، وكرر التزام أمريكا بالاستقلال السياسي والسلامة الإقليمية لكل دول المنطقة» وأرسل البيت الأبيض إشارات شفهية أشد من ذلك، مفادها أن «مصر قد ارتكبت عدواناً» في المضائق، الأمر الذي ألحق ضرراً بالمصالح الحيوية للولايات المتحدة، وبالتالي سوف تواجه «أوخم العواقب الدولية إذا بدأت بالعنف بصورة علنية، أو سرية... باستخدام قوات عسكرية نظامية أو مجوعات غير نظامية». وانتشرت شائعات بأن أمريكا تخطط لكسر الحصار بالقوة، وأنها تدرب المارينز على إنزال برمائي في تيران. واستنفر الأسطول السادس الموجود في شرقي البحر المتوسط.

لم تهدأ مخاوف ناصر من تدخل عسكري أمريكي رغم تلقيه رسالة خاصة من البيت الأبيض ينفي فيها جونسون وجود أية مشاعر عدوانية تجاه مصر أو رئيسها شخصياً. إذ كتب جونسون يقول: «مهمتك ومهمتي ليست النظر إلى الوراء، بل لإنقاذ الشرق الأوسط -والمجتمع الإنساني- من حرب أعتقد أن أحداً لا يريدها». واقترح إرسال نائبه هيوبرت هـ همفري (Hubert H. Humphrey) بمهمة وساطة إلى القاهرة. لم يتأثر ناصر بذلك. لأن همفري هو ذاته الذي صرح ذلك الأسبوع نفسه بأن «إسرائيل منارة كل الشعوب في الشرق الأوسط وغيره». وعلى الرغم من محاولة رياض تهدئة مخاوف ناصر إذ أبرز عبارات جونسون التي يدعم فيها اتفاقات الهدنة وعدم وجود أية عبارة تؤكد التزام الولايات المتحدة الصارم بإسرائيل، ظل ناصر غير واثق بنوايا واشنطن، وخائفاً من المؤامرات الأمريكية- الإسرائيلية. (٦٠)

كانت مخاوف عبد الناصر انعكاساً، في جزء منها، للحالة العامة التي تتصف بها العلاقات المصرية- الأمريكية التي كادت أن تكون مدمّرة قبل الأزمة. إن قنوات الدبلوماسية الهادئة التي ساعدت على تصريف بعض السم من تلك العلاقات في الماضي، قد سُدَّت الآن نتيجة تغيير بعض الشخصيات في واشنطن والقاهرة. «إذ كان الدكتور مصطفى كامل الأعزب البالغ من العمر ٥٨ عاماً، أستاذ القانون سابقاً،

وسفير مصر إلى الهند، على وشك الإحالة إلى المعاش في غضون أيام. كان كامل، المهذب، المحب لأمريكا، يعتقد أن مستقبل مصر يكمن في التنمية الاقتصادية وليس في حكم العالم العربي. وبذل جهداً شاقّاً لإبقاء الخطوط مفتوحة مع البيت الأبيض مطمئناً أعضاء الهيئة أن ناصراً معجب بالولايات المتحدة ومصمم على إبقاء القضية الفلسطينية «في الثلاجة» حتى بعد فرض الحصار على تيران، ظل كامل يصر على أن الوضع ليس بلا رجعة، وأن هناك فرصة للتفاوض.

سبق رحيل كامل من واشنطن، رحيل لوشيوس باتل (Lucious Battle) من القاهرة في مارس (آذار). وصل بديله، ريتشارد هـ نولت (Richard H. Nolte) في ٢١ مايو قبل إغلاق ناصر للمضائق بيوم واحد. كان نولت سفيراً مثالياً، على الورق على الأقل، فهو ملاح بحري في الحرب العالمية الثانية، من علماء رودس (Rhodes)، حصل على درجة جامعية من اكسفورد وييل، مُلِمٌّ بالعربية، ومدير جميعة دراسات الشرق الأوسط. وكان يعتقد أن لعبد الناصر اليد العليا في سيناء، الأمر الذي يمكنه من ادعاء نصر معنوي أو لتصنيف إسرائيل بأنها معتدية إذا ما هاجمت مصر. ومع ذلك لم تُهيئه بتدريباته هذه للضبط والدبلوماسية العالية التي يتطلبها الوضع الآن. فعندما سئل عن رد فعله على الأزمة، أجاب متسائلاً: «أية أزمة؟». (٦١)

وبسبب عدم خبرة نولت قررت وزارة الخارجية الأمريكية، تعزيز السفارة في القاهرة بتشارلز يوست (Charles yost) سفير أميركا إلى دمشق سابقاً وذي معرفة وثيقة بمحمود رياض. ظل نولت، مع ذلك، حتى بدون تقديم أوراق اعتماده إلى أن وصل يوست. وسرعان ما واجهه رياض بحقيقة أن مصر ستوقف كل السفن والشحنات المتجهة إلى إسرائيل وستدافع عن نفسها ضد أية قوة تحاول الدفاع عن تلك السفن والشحنات. وجاء في تقرير نولت أن عبد الناصر قد قرر النصر فيها. وقال محذراً: «إن حالة العقلية العربية الآن أشبه بحالتها عام ١٩٤٨ أكثر من شبهها بحالة العام ١٩٥٦. إذ يعتقد العرب أن النصر ليس محتملاً، بل مؤكداً». (٦٢)

أدرك نولت ما كان واضحاً لدى كثير من الدبلوماسيين الغربيين، من أن الشكوك التي تحيط بمقدرة قهر مصر لإسرائيل قد تبددت برفض الغرب الدفاع عن إسرائيل، وبعزوف إسرائيل عن الدفاع عن نفسها. كتب هيكل في الأهرام، مبّيناً كيف أن الحصار الذي يُقوّض قوة إسرائيل الرادعة سوف يضطرها إلى خوض الحرب: «إن الصدام المسلح بين إسرائيل حتمي لا مفر منه، ولتبدأ إسرائيل. ولتكن ضربتنا الثانية جاهزة. ولتكن ضربة قاضية».

كانت ثقة المصريين بأنفسهم تتعاظم، ومع ذلك لم يستطع عبد الناصر تحرير نفسه من خشية التعاون العسكري بين الولايات المتحدة وإسرائيل وأسَرَّ إلى فوزي واصفاً سيناريو إرسال إسرائيل سفينة عبر المضائق بحراسة أمريكية، فيقوم المصريون في شرم الشيخ بإطلاق النار عليها. وفي أثناء انشغال العرب بمحاربة أمريكا تقوم إسرائيل باحتلال سيناء. اعترف فوزي بأن مثل هذه المناورة محتملة. إن سلوك أمريكا في الأزمة أشبه بجبل جليدي طاف. معظمه خافٍ تحت السطح». (٦٣)

رأى عبد الناصر في صراعه مع معضلة أمريكا بعض الميزات في خطة «الفجر». إذا ما أرسل جونوسون سفناً حربية إلى المضائق، فإن الجيش المصري سيتابع غزوه لجنوب إسرائيل. فتمكّن هذه العملية عبد الناصر من تقليص فرص الخسارة أو الفشل بتوافر عدة خيارات -الحفاظ على وضعية الدفاع بينما هو يعد لخيار الهجوم؛ ويحث العرب على الحرب بينما يمنع نشوبها بهدوء. وتباهى ناصر بأن المضائق مزروعة بالألغام وأن مصر وقفت وراء غارات الفدائيين الفلسطينين. والحقيقة هي أن المضائق لم تكن ملغّمة عندما كانت القاهرة تحاول كبح فتح بشدة. وذكّر ناصر الأمريكيين عبر قنوات خلفية، بأنه مازال مهتما بالسلام. وفي حديث لعبد الناصر مع السيد صديقي (Siddiqui) صاحب منتجات ألكو (Alco) في ٢٩ مايو، قال: إن هدفه الوحيد هو إظهار قيادته للعالم العربي وليست لديه أية نوايا في قتال أحد. ونقل صديقي إلى وزارة الخارجية الأمريكية قوله: «إن طلبه (عبد الناصر) الملح هو ألا تقوم الولايات المتحدة بأي عمل عسكري مباشر كالإنزالات وتنقلات الأسطول البحري أو غير ذلك». (٦٤)

ومع ذلك كان خطر التدخل الأمريكي يشكل نصف مصادر قلق عبد الناصر، والنصف الثاني كان: هل سيرد الاتحاد السوفياتي على ذلك التدخل وكيف؟.

كانت ثقة المصريين بالدعم السوفياتي قوية،على الأقل في بداية الأزمة. وكان ذلك إثر محادثات حول التعاون الاستراتيجي جرت مع وزير الخارجية غروميكو (Gromyko) في القاهرة في مارس، ومن ثَمَّ، وإثر زيارة دولة قام بها رئيس الوزراء كوسيجن (Kosygin) في إبريل وعدت خلالها مصر بمساعدة سوفياتية قدرها ٥٠٠ مليون دولار «لتقوية الجبهة المناهضة للامبريالية» بموجب اتفاق بين الاتحاد السوفياتي ومصر. عَبَّرت أوامر عامر إلى قادته في ١٥ مايو عن التأكد من أن «الكتلة الشرقية لن تقف بعيدة عن الأحداث مُفسحة المجال للقوات الأمبريالية الغربية تعيث في المناطق العربية بوحشية». وبدا أن هذا الافتراض قد تعزَّز بثناء الصحافة السوفياتية على إعادة عسكرة سيناء وطرد قوات الطوارئ الدولية وامتداحها. وقال بيان موسكو المشترك محذراً: «لا يساورنَّ أحداً شك أبداً بأنه إذا ما حاول أحد أن يباشر العدوان في الشرق الأوسط، لن يواجه القوة الموحَّدة للدول العربية وحدها بل فسيواجه معارضة قوية من الاتحاد السوفياتي وكل الشعوب المحبة للسلام».

وتلقت مصر وعوداً بمساعدة اقتصادية، في حين أوضح الوفد السوفياتي في الأمم المتحدة أنه لا يمكن تحمُّل أي تدخل لمجلس الأمن في سيناء». (٦٥)

كل ذلك تغير مع إغلاق المضائق. فعلى الرغم من إعلام السفير السوفياتي بوجيداييف (Pojidaev) بقرار الإغلاق قبل إعلانه، فإن وجهة الكرملين في الحصار لم تبحث مسبقاً. فخيم صمت غريب على العلاقات المصرية السوفياتية تماماً كالصمت الذي خيمَّ على العلاقات بين القاهرة وواشنطن. أفادت مصادر دبلوماسية أن السوفيات أخذوا يغيرون نغمتهم. فبدلاً من تحذير الغرب من التدخل في تصرف مصر في سيناء والتأكيد على دعم ناصر، أكد الاتحاد السوفياتي على الحاجة إلى

تسوية بالتفاوض وعبروا عن رغبتهم في المساعدة على تحقيقها. وعلى الرغم من تَوَجُّه السفير المصري، مراد غالب، إلى الاتحاد السوفياتي باستمرار لبيان موقف موسكو بالضبط في حال نشوب حرب، ولكنه لم يتلق أي جواب.

استدعى عبد الناصر ذو المزاج المعكَّر بوجيداييف ثانية في ٢٣ مايو إلى مكتبه ليعنفه هذه المرة: «أريدك أن تخبر زعماءك في موسكو أن الاتحاد السوفياتي هو العامل الوحيد المؤثر في كل شيء يحدث الآن.» وذكَّره عبد الناصر بإنذار الاتحاد السوفياتي وتحذيره من هجوم إسرائيلي على سورية وأنه هو الذي دفع بمصر إلى سيناء، والنتيجة هي أن إسرائيل تحشد قواتها في الجنوب وليس في الشمال، بل في الجنوب ضد مصر. ولا يمكن للاتحاد السوفياتي أن يترك مصر في موقف حرج، بل يجب تزويدها بمعدات حربية إضافية -وخصوصاً بصواريخ جو- أرض التي تفتقر إليها مصر- وبدعم سياسي ضد الولايات المتحدة. فكان جواب بوجيداييف قياسيا نمطياً: «ينبغي أن تعلموا أنتم والعالم العربي أن الاتحاد السوفياتي يقف بحسم وراء الدول العربية المستقلة، وإذا ما تطور الوضع إلى عدوان من الامبريالية و«طفلها الضئيل» إسرائيل، فإننا سوف نتخذ الإجراءات الضرورية». لكن هذا القول لم يهدئ من روع عبد الناصر. فقال موبخاً: «لا أريدكم أن ترسلوا إنذاراً إلى إسرائيل، فإن ذلك سيكون بمثابة اعتراف بها لا تستحقه، وبجعلها تجني منافع الضعيف. بل ينبغي أن يوجه إنذاركم إلى القوة الامبريالية». (٦٦)

توصل ناصر من خلال هذا الحديث بألاَّ بد من توضيح الموقف السوفياتي أولاً بغض النظر عما إذا بدأت مصر الحرب، أو انتظرت حتى تتحدى الولايات المتحدة الحصار. ولهذه الغاية سافر وفد إلى موسكو في ٢٥ مايو. كان على رأس الوفد وزير الدفاع شمس الدين بدران، رَجُل عامر، رغم أن ناصر قد تأكد من وجود موالين له ضمن الوفد كذلك، بمن فيهم صلاح بسيوني وأحمد حسن الفقي، وكلاهما من وزارة الخارجية. ورغم إعلان السوفيات بأن الزيارة تهدف إلى الحصول على «أنماط من الأسلحة لا تملكها مصر»، فإن المهمة الحقيقية للزيارة هو التأكد من المدى الذي تستطيع مصر أن تصل إليه، ويظل الاتحاد السوفياتي وراءها. (٦٧)

وعلى الرغم من فوضى الحشد المصري، وعدم التأكد من نوايا أمريكا والاتحاد السوفياتي، استمرت الإعدادات لعملية «الفجر» بتسارع، فقد حركت القوة الضاربة I، وهي فرقة خاصة- و٩٠٠٠ رجل و٢٠٠ دبابة ومدفع بقيادة الجنرال سعد الدين شاذلي، بالإضافة إلى اللواء الرابع عشر، إلى رفح استعداداً لغزو النقب الشمالي. وصدرت أوامر المعركة من ١-٦ محدّدة الأهداف التي ينبغي إبادتها بما فيها المطارات، ومواقع الصواريخ والرادارات، ومحطات تحلية المياه.

ورحلت أسر الضباط المصريين من غزة، في حين نقل إليها عشرات المدراء والمهندسين وحتى الأطباء استعداداً لاحتلال النقب. وذكر أمين طنطاوي، قائد سرية في الفرقة الرابعة أنه «كان واثقاً من النصر». «وقال: «منحتني خطابات عبد الناصر الثقة.» واعتقدت أن يوم التحرير قد أتى وأننا نستيطع أن نكون البادئين بالهجوم». وأن ندمر إسرائيل في غضون ساعات. وخطرت ببالي أفكار عديدة حول ما سنفعله بإسرائيل لدى هزيمتها ومحوها».

كان الجميع مستعدين في صباح الخامس والعشرين من مايو. في ذلك اليوم، جمع الفريق صلاح محسن، قائد القوات البرية، ضباط المشاة الكبار وأخبرهم بأن الجيش الآن بأكمل قوته، ويملك من الدبابات والمدفعية والجنود ثلاثة أضعاف ما يملكه العدو. وستبدأ تلك القوات هجومها في غضون يومين تماماً- مع أول خيوط الفجر. (٦٨)

## كل تأخير مقامرة

كان الناس في إسرائيل يرقبون مدى الحشد المصري وكثافته، وحشد كل جيش عربي تقريباً بهلع. وقال يوسي بيليد (Yossi Peled) الناجي من الهولوكوست، وجنرال المستقبل متذكراً أسابيع الانتظار في النقب: «لقد رأينا صور ضحايا هجمات الغاز المصرية في اليمن. فبدأنا نفكر بالإبادة قومياً وفردياً».

وبدأ الجنرال ياريف (Yariv) يقتنع الآن أنّ الهجوم المصري سيحصل في غضون ساعات لا أكثر. وقال لإشكول: «هناك ما يدعو ناصراً ألا ينتظر: فكل الدلائل تشير إلى أنه سيشرع بالاستفزاز» وأشار إلى تقدم الفرقة الرابعة المستمر في سيناء، ونقل أربعة ألوية من اليمن إلى سيناء، وإلى أن القوات السعودية تتحرك، وكذلك العراقية التي كانت تستعد للدخول إلى سوريا. وأشارت عمليات اعتراض الاتصالات بين السفارات العربية إلى أن «انفجاراً مفاجئاً» على وشك الوقوع.

تصور هود (Hod) قائد السلاح الجو الاسرائيلي غارة جوية كبيرة ضد القواعد الإسرائيلية والمدن الإسرائيلية، في حين «أشارت تقارير مئير أميت (Meir Amit) من الموساد إلى خطط مصرية للهجوم على النقب. وقالت التقارير القادمة من الميدان: إن معنويات الجيش في هبوط كبير. إذ كتب يوني نيتانيا هو (Yoni Netan yahu) قائد فصيل مظليين إلى صديقته العائدة إلى الوطن: «إننا نجلس وننتظر». ووافق رؤساؤه على ما كتبه كلياً بتساؤلهم: «لماذا ننتظر؟» كل يوم يمر بدون معركة يكلف البلاد ما يقدر بـ ٢٠ مليون دولار، في حين يرسخ المصريون أقدامهم، وقررت هيئة الأركان العامة أن «كل تأخير يعد مقامرة على مصير إسرائيل». (٦٩)

هل ينبغي أن تستبق إسرائيل الهجوم المصري؟ وإن كان كذلك؟ كيف؟ «كانت هذه الأسئلة مطروحة على طاولة رئيس الوزراء في مكتبه مساء ٢٥ مايو. وكان كل من ياريف وأميت وليور ووايزمن والموظف ليفافي (Levavi)، والدكتور ياكوف هيرتزوغ (Yaakov Hertzug). أمين سر مجلس الوزراء في مكتب رئيس الوزارة أيضاً. ولكن أبرز الحاضرين كان إسحق رابين (Yitzhak Rabin). إذ كان رئيس الأركان قد عاد إلى نشاطه بعد غياب ثلاثين ساعة. ويقول حاييم بارليف (Haim Barlev) أحد الضباط الكبار واصفاً حالته: «لم يكن -لست أدري كيف أصفه- مكتمل الهيئة. بالطبع جرى إطلاعه على التطورات، ولكنه كان يفتقر إلى قوته العادية». والواقع أن أول عمل قام به رابين لدى دخوله الغرفة هو تقديم استقالته. ولم يتجاوز جواب إشكول عبارة «انس الموضوع». ونحّاه جانباً. كتب رابين بعد سنوات عديدة يقول: كان

إشكول دافئاً، حكيماً. ربما كان يعلم منذ زمن -ما اضطررت لمواجهته حديثا- الأعماق المخيفة لسقوط الرجل» (٧٠) كان هذا السقوط، في واقع الأمر، هو الموضوع - ليس سقوط رابين، بل سقوط إسرائيل. لم تكن واشنطن راغبة في إعلان أي التزام بأمن إسرائيل، سواء ماديا أو شفوياً؛ وكانت تؤخر شحن المعدات العسكرية التي اشتراها جيش الدفاع الاسرائيلي. أصغى إشكول بعد أن أبدى أسفه لقبوله مهلة الثماني والأربعين ساعة. استمع إلى اقتراحات باستدعاء إيبان قبل لقائه جونسون كي لا يشعر الأمريكيون بضربة بيرل هاربر (Perl Harbar) أخرى إذا ما قامت إسرائيل بهجوم مفاجئ، أو إذا أرسلت سفينة إسرائيلية عبر المضائق. رفض هذه الاقتراحات خشية أن تكشف نوايا إسرائيل وتذاع، وبالتالي تُمكِّن مصر من توجيه الضربة الأولى. ومع ذلك دعم رئيس الوزراء استدعاء بقية الاحتياط، وتوضيع لواء فانتوم مقابل الكونتيلاً لردع قوة الشاذلي. ولكن لم يتم التوصل إلى قرار بتوجيه ضربة استباقية.

سأل إشكول اليائس رئيس أركانه: «ماذا تريدني أن أقول لمجلس الوزراء؟» فأجاب رابين بفظاظة -ربما لم يكن قد شفي تماماً بعد- «لقد وصلنا إلى نقطة الانفجار. السؤال الوحيد: لماذا ننتظر وإلى متى؟ فإن وافق الأمريكيون أن يعلنوا أن أي هجوم على إسرائيل يعد هجوماً على الولايات المتحدة، يمكن أن يكون ذلك سبباً للانتظار. وإذا لم تفعل، فلا».

سرعان ما دعم المشاركون في الاجتماع فكرة رابين. واقترح ياريف تزويد الأمريكيين بتقديرات المخابرات الاسرائيلية، واقترح ليفافي إخبار جونسون بأن إسرائيل على وشك أن تغزى بجيوش عربية مجتمعة.

وهدف الرسالة سيكون ثلاثياً: منع صدور اتهامات أمريكية لإسرائيل بعدم الوفاء إن هي وجهت الضربة الأولى؛ ولخلق قاعدة أخلاقية للتصرف الاسرائيلي، إن رُفض؛ ولحث أمريكا للتدخل في الأزمة بقوة أكثر. وأضاف إشكول إلى هذه الدوافع الحاجة إلى منع إيبان من الموافقة على أية إجراءات يمكن أن تكبل يدي إسرائيل.

والوحيد الذي أبدى تحفظاً هو الدكتور هيترتزوغ، ابن رئيس أحبار إيرلندا سابقاً، والذي يعد عبقريا في الشؤون الخارجية. وتابع الكلام محذراً بصوت أجش: «لا يستطيع الرئيس جونسون إصدار مثل هذا الإعلان الذي تريدون». بسبب قيود الكونغرس. ومع ذلك عندما طلب من هيرتزوغ إيجاد بديل، كتب مسودة رسالة إلى إيبان ليسلمها إلى القادة الأمريكيين. اختتم إشكول البحث قائلاً: «أريد أن تسجل هذه الرسالة للتاريخ بأننا، قبل أن نهاجم، بذلنا ما بوسعنا لإيجاد حل دبلوماسي».

اختارت القيادة الاسرائيلية الانتظار، مرَّة أخرى، بيد أن هذا الخيار واجه تحديا في الاجتماع التالي للجنة الدفاع الوزارية. استمع الوزراء إلى إيجاز من رابين، وياريف اللذين كررا التهديدات التي يواجهها أمن إسرائيل، إن لم يكن وجودها نفسه. وكان رد الفعل، مختلفاً، على أية حال.

سأل زوراخ وورها فتنع (Zorach Warhafting) وزير الشؤون المدنية، الذي كبقية زملائه في الحزب الديني القومي (NRP)، يعارض أي تحرك نحو الحرب: «طالما فقدنا المفاجأة الاستراتيجية، فما أهمية من يضرب أولاً؟ «وحذر زالمان أران من «قوة الاتحاد السوفياتي العالمية» ومن «جدار من الفولاذ والنار» يهلك مدن إسرائيل. وأضاف حايم موشي شابيرا إلى هذه الجماعة بمطالبة بن غوريون ليستلم منصب وزير الدفاع؟

كان إشكول قد بدأ يجيب شابيرا قائلاً: «لن أشكل حكومة وأذهب إلى الحرب برجل اتهمنا بالكذب والخيانة» عندما وصل خبر تحليق طائرات مصرية فوق ديمونة. مَرَّت أربع طائرات ميغ-٢١ فوق المفاعل على ارتفاع ٥٥٠٠٠ قدم وصورته. تحرك الطيارون الإسرائيليون وأطلقوا صواريخ هوك (Hawk)، ولكن أياً منها نم يستطع اعتراض طائرات الميغ.

فصاح إشكول قائلاً: «المقاتلات المصرية تحلق فوق ديمونة ونحن هنا نتجادل بشأن بن غوريون!» وخرج من الاجتماع غاضبا ليلتقي رابين ووايزمن وسألهما بصراحة مباشرة: «هل أفهم أنكما تريدان الهجوم اليوم؟».

أجاب وايزمن: «كل الدلائل تشير إلى أن المصريين جاهزين لتويجه ضربة. فليس أمامنا خيار سوى الهجوم فوراً».

وكشف رابين أن إشارات غريبة صدرت عن طائرات الميغ، وربما إلى قاذفات استراتيجية. الأخطار واضحة، ومع ذلك لا بد من استنفاد الاحتمالات الدبلوماسية. «ننتظر إلى ما بعد اجتماع إيبان مع جونسون». (٧١)

## إيبان في الخارج

لم يكن مصير إسرائيل بأيدٍ أفضل من يدي وزير خارجيتها، كما يرى الكثيرون من المراقبين الخارجيين. تخرج إبا إيبان من جامعة كمبردج (Cambridge) وهو متعدد اللغات، ومؤلف غزير، وخطيب مصقع، ورافق عن كثب المسرحية المحيطة بولادة إسرائيل - في الأمم المتحدة حيث كان سفيراً من العام ١٩٤٧ إلى العام ١٩٤٩، وفي واشنطن حيث قام بأعمال سفير منذ العام ١٩٥٠. فلقد نسب إليه بعض الأقوال البارعة، مثل قوله في دعم العرب للتقسيم بعد العام ١٩٤٨ «كالطفل الذي يقتل والديه ثم يطلب لنفسه الرحمة بوصفه يتيماً»، أو قوله في إزالة قوة الطوارئ الدولية «ما نفع فرقة الإطفاء التي تختفي عن المكان حالما يتصاعد الدخان واللهب؟». احتفى به رسميون شعبيون في الولايات المتحدة، واستشهدت الصحافة بأقواله على نطاق واسع، وكان يعد معبود اليهود الأمريكيين.

ولدى عودته إلى إسرائيل في العام ١٩٥٩ رشح نفسه للكنيست وفاز وعُيّن على الفور وزيراً للتربية أولاً في عهد بن غوريون، ثم نائب رئيس وزراء في حكومة إشكول. وعلى الرغم من مضي سنة فقط على إشغاله منصب وزير الخارجية، كانت خبرته في الدبلوماسية الدولية موضع تقدير عال واحترام - مَرَّة أخرى، خارج إسرائيل.

أما في إسرائيل، فكان في نظر الكثيرين، مثل أو بري سولومون (Aubrey Solo-mon) الأخرق من كيب تاون (Capetown)، غريباً لا ينسجم أبداً مع الأساليب الإسرائيلية ولا يتفق مع عقليتها، بليد، يعاني من عسر التنفس منذ زمن طويل. قال

إشكول ذات مَـرَّة: «إنه في الواقع ليس حياً. لم يقدم بحياته حلاً صحيحاً قط، بل يقدم الكلام الصحيح». - «الأبله العلامة». وكان الذين يحطون من قدره لا يثقون به إضافة إلى سخريتهم منه. وكان الكثيرون يعتقدون أنه هو الذي ضلل الحكومة في العام ١٩٥٦ بفضل مبالغته بالضمانات التي كانت ترغب الأمم المتحدة والولايات المتحدة بإعطائها إلى إسرائيل لقاء خروجها من شرم الشيخ وغزة. والآن بعد أن انكشفت ضآلة تلك الوعود، قال منتقدوه، ومصير البلاد على كف عفريت: إن إيبان هو آخر من يمكن الاعتماد عليه. وفضل كثيرون من وزراء الماباي بمن فيهم إشكول نفسه إرسال غولدا مائير إلى واشنطن، والتي كانت سترسل فعلاً، لولا مرضها. (٧٢)

سلك إيبان طريقاً دائرية إلى واشنطن، كانت باريس فيها محطته الأولى في ٢٤ مايو. إذ كانت العلاقات مع فرنسا تشكل مصدراً كبيراً من القلق لإسرائيل. حتى إن طلبات إسرائيل أن تعيد فرنسا التزامها بأمن إسرائيل، والتوسط لدى السوفيات، وإدانة موقف ناصر، لم تستحق الرد من فرنسا. وفي حين كانت الذخيرة الفرنسية مازالت تصل إلى إسرائيل- من غير علم الحكومة على ما يبدو- كانت الدبلوماسية الفرنسية تسلك سبيلاً غير ودي لإسرائيل. (٧٣)

قال ديغول لأبا إيبان بعد المصافحة الروتينية: «لا تشنوا حرباً ولا تكونوا أول من يطلق النار». بعد أن فوجئ بهذه الفظاظة وبمظهر الرئيس العجوز الخادع، بدأ إيبان القول: إن ناصر قد أطلق الرصاصة الأولى فعلاً بإغلاقه المضائق، الأمر الذي يعد عملاً حربياً واضحاً. وذكَّر مضيفه كذلك بأن إسرائيل وافقت على الانسحاب من شرم الشيخ في العام ١٩٥٧، بناء على قوة التزامات فرنسا بحرية الملاحة الإسرائيلية. فرد عليه ديغول: «كان ذلك في العام ١٩٥٧. ونحن اليوم في العام ١٩٦٧».

مهما كانت الإشارة مكررة فهي رسالة واضحة إلى إيبان مفادها ان فرنسا لم تعد تحترم تلك الالتزامات «إذ كان ديغول في ذلك الوقت إثر تحرره من الأعباء الاستعمارية يُعد فرنسا لتكون وسيطا بين الشرق والغرب، بين الشيوعية والرأسمالية».

وكان فخوراً بالجسور التي أقامها مع العالم العربي، ولم يكن مستعداً لنسفها لمجرد تعاطف الرأي العام تعاطفاً مصطنعاً مع إسرائيل بوصفها دولة صغيرة ذات تاريخ بائس. «كان ديغول يسعى إلى عقد لقاء بين الزعماء الأمريكيين والسوفيات والبريطانيين معاً لحل قضية المضائق كما فعلوا في «قضية الدردنيل (Dardanelles)». قال إيبان: «كان يتكلم وكأن ذلك كان حقيقة راسخة لا بد لي من معرفتها».

عبَّر إيبان عن شكه فيما إذا كان السوفيات سيتعاونون مع اقتراح القوى الأربع، أو ما إذا كانت إسرائيل ستنتظر فترة غير محدودة من الدبلوماسية. وقال بلغة فرنسية لفظها بعناية: «إذا كان الخيار بين أن نستسلم او نقاوم، فإننا سوف نقاوم. لقد اتخذ القرار.. ولا أعتقد أن إسرائيل ستقبل الوضع الجديد الذي أوجده عبد الناصر لفترة طويلة من الزمن». (٧٤)

انتهت المحادثة كما بدأت بتحذير ديغول: «لا تشنوا حرباً» وقال ديغول فيما بعد لوزير خارجيته موريس كوف دي مورفيل (Maurice Couve deMunville) في لقاء ثنائي بينهما: إن إسرائيل ذاهبة إلى الحرب في النهاية. ومع ذلك قال للصحافة فيما بعد: «إذا هوجمت إسرائيل، فلن نتركها تُدّمرَّ، ولكن إذا ما هاجمتم (أيها الإسرائيليون)، فلسوف ندين مبادرتهم هذه». وقال ناطق باسم الرئيس ما هو أبعد من ذلك: «لن تطلق إسرائيل الطلقة الأولى كيلا توصف بالمعتدي، بل سوف ترسل سفينة عبر تيران». (٧٥)

كان استقبال إيبان في لندن دافئاً بالمقارنة مع استقباله في باريس، كان لقاؤه في لندن أخوياً. جلس إيبان في (١٠ دوانينغ ستريت) إلى مائدة يستنشق «دخان الغليون غير اللذيذ جداً» الذي كان يدخنه رئيس الوزراء هارولد ويلسون محملقاً في وزير الخارجية جورج براون -«المستعرب المتقلب، الكالح الوجه، الضخم الجسم، المفتقر للباقة».- الذي كان جالساً أمامه. كان إيبان مستعداً لسماع كلام مثبط أكثر مما سمعه من ديغول؛ ولكن العكس قد حصل.

كان ويلسون (Wilson) معجباً منذ زمن طويل بإسرائيل، والتي وَجَّه إهداء أحد كتبه لها، وحيث تطوع أحد أبنائه في إحدى كيبوتساتها وكان يعتقد أن «انقلاب» عبد الناصر قد غير ميزان الشرق الأوسط لصالح السوفيات، وأن عدم الرد عليه سيكون «مثل العام ١٩٣٨».

أكد لإيبان التزامه بإعادة فتح مضائق تيران بالقوة سواء «داخل الأمم المتحدة أو خارجها» وأرسل من أجل ذلك وزير الدولة جورج تومسون (George Thomson) لإجراء محادثات سرية في واشنطن. أما وزير الخارجية فسوف يسافر إلى موسكو ليستكشف وجهة نظر السوفيات. قال ويلوسن: سوف تفي بريطانيا بوعودها التي قدمتها منذ العام ١٩٥٧ وعرض إرسال ذخيرة دبابات وفرقاطة HMS Leviathan إلى إسرائيل.

كان ويلسون مدركاً أن بريطانيا «ستكون في طليعة» أية مبادرة دولية لإرسال سفن أو أية صدامات محتملة مع مصر. وكان قد قال للأميركيين: «نعتقد أن الاهتمام يجب أن يتركز على حرية العبور وليس على المواقع الساحلية». كان لدى عالم الاقتصاد المتخرج في جامعة أكسفورد مخاوف من فرض العرب حظراً على تصدير نفطهم للغرب. الأمر الذي سوف يؤثر على سياسة الإصلاح المالي التي كان قد بدأ بها. والغريب، مع ذلك، أن ويلسون لم يقدم أية نصيحة لإيبان - ولا تحذيراً، خصوصاً فيما يتعلق بمسألة «أن تبدأ إسرائيل بالطلقة الأولى أم لا تبدأ».

وذكر أن العمَّالي اليساري الذي قال ذات يوم: «يسمح لكل كلب بعضة واحدة، ولكن النظرة تختلف إلى الكلب الذي يستمر بالعض» ظل صامتاً بشأن قضية الحرب. (٧٦)

لابد وأن محادثات لندن قد رفعت من معنويات إيبان، ولكنه بفضل الإرهاق الذي لحق به، ولإحساسه بمسؤوليته تجاه ضمانات العام ١٩٥٧ «كان الإسرائيليون أقل ثقة بي خلال عقد من الاستقرار من لومي على انتهاء هذا العقد»، ظل قلقاً بشأن

اللقاءات المقبلة في واشنطن. فأبرق إلى هارمان (Harman) يقول: «علينا أن نكون واضحين مع الولايات المتحدة بأن إسرائيل قد قررت عدم عقد سلام إذا ما أغلقت المضائق. فنحن لا نرضى بتصريح أمريكي يبقي المضائق في يدي ناصر».

كانت مهمة إيبان أسهل وصفاً من الإنجاز. ومع أن جونسون قد أدان علناً الحصار، إلا أنه مازال ينبغي أن يلزم نفسه بمقاومة الحصار، ودعم إسرائيل إذا ما قررت مقاومة الحصار، وهذا ما كان يتوق إيبان إلى الحصول عليه.

ولكن بدلاً من ذلك، أبدى المسؤولون في الإدارة الأمريكية رغبة مخيفة لتحمُّل استفزازات ناصر بتقبل فكرة يوثانت، أولاً، بنقل قوات الطوارئ الدولية إلى إسرائيل ثم عدم الاعتراف بأن استفزازاً قد حصل ما لم يجر إطلاق النار. وقالوا: «ينبغي ألا تسير إسرائيل في القضية وحدها تحت أية ظروف». (٧٧)

ومع ذلك كان التهديد بأن إسرائيل سوف تسير وحدها فعلاً في إخراج الأمريكيين من حالة الفتور تجاه إسرائيل ولدى سماع السفير باربر إيجاز وزير الخارجية الاسرائيلي حول الحالة المتقدمة من الانتشار المصري في سيناء، سأله قائلاً: «هل يعني ذلك أنكم سوف تتصرفون على الفور دون تفكير ملائم في الأمر؟» فجاءه الرد القاسي الذي يسمح بالمناقشة: «هذا كل ما خولنا أن نذيعه». وفي هذه الأثناء أخذ الدبلوماسيون الاسرائيليون في أمريكا يعملون لحشد التأييد في مجلس الكونغرس، ولدى نشطاء الحزب الديمقراطي، وحتى لدى أصدقاء الرئيس، ودفع الإدارة الأمريكية للعمل.

فسارع هارفان إلى غتيزبيرغ (Gettysburg) وبنسلفانيا (Pennsylvania) ليحث دوايت إيزنهاور على الإعلان عن الوعود التي قطعها ودالاس إلى إسرائيل في العام ١٩٥٧. وافق الرئيس السابق، المتوعك، مضيفاً: «لا أظن أن إسرائيل سوف تترك وحدها».

بدا وكأن ذلك كله لم يثن البيت الأبيض عن موقفه. إذ قيل للإسرائيلين إن جونسون مقيد بفيتنام والقيود البرلمانية، وأنه يكره أن يُضغط عليه من إسرائيل. وذكَّر رستو إيفران قائلاً: «إن أي عمل إسرائيلي من طرف واحد يمكن تعليله فقط

بعد استنفاد جميع الاجراءات السلمية. ولا بد من عرض هذا التعليل أمام شعب الولايات المتحدة والعالم. «إذ لا بد من خضوع أية خطوة يتخذها جونسون في الشرق الأوسط إلى الأمم المتحدة ودراسة دستورية». (٧٨)

هذه هي المملكة الضبابية التي دخلها إيبان صباح يوم الخامس والعشرين من مايو، هابطاً بطائرته في مطار كينيدي في نيويورك. وعلى الرغم من بعض ومضات السطوع المبدئية - إذ قام ٨٧ عضواً من الكونغرس بزيارة جونسون لدعم موقف إسرائيل، كما ذكر أيفرون ورفائيل، وحصل تقدم في التخطيط الأنكلوا -أمريكي لإرسال سفن بحرية- فإن الأخبار قد اكتأبت بسرعة. إذ زوَّد السفير هارمان وزير الخارجية إيبان في فندقه بخبر قال عنه «إنه أشد صدمة يتلقاها في حياته».

كانت الرسالة الموقعة من إشكول يحذر فيها من هجوم وشيك صدمة كبيرة، فقد بدأت الرسالة بعبارة «العرب يخططون إلى عدوان واسع، ولم تعد مضائق تيران هي القضية، بل وجود إسرائيل بالذات».

وذكر الفرق المصرية الست الموجودة في سيناء، وزوارق الصواريخ. التي دخلت خليج العقبة، والألوية المدرعة التي نُقلت من اليمن. وسوريا والعراق مستعدتان للهجوم كذلك.

وتدهور الموقف الغربي يشجع العرب ويزيد من شهيتهم ساعة بساعة. وعليك أن تضغط على جونسون ليبين أية إجراءات ملموسة -أكرر إجراءات ملموسة- يرغب في اتخاذها لتفادي الانفجار الوشيك».

كان إيبان شاحباً. إنه ليس مقتنعاً بأن ناصر كان مصمماً او حتى قادرا على الهجوم، ويرى أن إسرائيل ضخمت التهديد المصري -ويعرضون ضعفهم متباهين به- من أجل انتزاع وعد لا يستطيع الرئيس المقيد بالكونغرس إعطاءه.

وكانت الكلمات التي اختارها لبرقيته التي كتبها «إنه لتصرف شاذ... ينطوي على عدم مسؤولية خطير... يفتقر إلى الحكمة والصدق والثقة والفهم التكتيكي. فليس فيه شيء صحيح».

إن إيبان الذي لم يكن يوماً نصيراً لرابين، والذي يكره تدخل الهواة في تعقيدات العلاقة الأمريكية - الإسرائيلية، قد عزى المبادرة فيما بعد إلى حالة رئيس هيئة الأركان الفعلية غير المستقرة.

ومع ذلك اعترف بتعليماته الجديدة، وطلب تأجيل اجتماعه الأول بالأمريكيين ساعتين، إلى الساعة ٣,٥٠ بعد الظهر. (٧٩)

تركزت عين الأزمة الآن على تلك المباحثات، أولاً في وزارة الخارجية الأمريكية، ثم في البنتاغون، وأخيراً في البيت الأبيض. حذر هارولدو يلسون الرئيس جونسون، بعد أن أطلعه على انطباعه الذي حصل لديه من محادثاته مع إيبان، أن إسرائيل ستخوض حربا ما لم يتلق وزير خارجيتها التزامات مادية ملموسة بأمنها. وعزز والي باربر (Wally Barbour) في تل أبيب تقييم ويلسون تماماً، إذ قال: «التاريخ وحده سوف يكشف ما إذا كان تصرف إسرائيل منفردة أصبح وشيكا في غضون ساعات، ولكن انطباعي أن ذلك قد أُرجِئَ بضعة أيام، على الرغم من إدراكي بأن احتمال التأجيل مرغوب فيه من ناحيتي».

كان ويلسون وباربر كلاهما يعلمان أن تقرير إيبان حول محادثاته، الذي سيقدم إلى مجلس الوزراء الإسرائيلي في ذلك الأحد، سوف يقلب الميزان إما لصالح القيام بضربة استباقية أم لا.

ولدى سؤال السفير إلى موشي بيتان، رئيس شعبة الولايات المتحدة في وزارة الخارجية «ماذا سوف يحدث لو تلقيت تعاطفاً بدلاً من الدعم لعمل معين؟» أجاب موشي قائلاً: «حسناً سيكون ذلك، عندئذ، نهاية الخط بالنسبة لنا». (٨٠)

## في الطريق إلى سباق زوارق

نادراً ما كان في حوليات السياسة الخارجية الأمريكية أزمات دولية دفعت بالإدارة الأمريكية كلها إلى حالة عدم التيقظ المطبقة. إذ إن البيت الأبيض كان يدرس، في اليوم الذي دخلت فيه القوات المصرية إلى سيناء، إرسال نائب الرئيس الأمريكي همفري (Humphrey) إلى القاهرة ليرقع ما انخرق في العلاقات الأمريكية المصرية. وكان مصدر الأمل في النجاح هو استمرار عبد الناصر في موقفه المعتدل تجاه القضية الفلسطينية. كتب هارولد سوندرز (Harold Saunders) خبير الأمن القومي في الشرق الأوسط، في ١٥ مايو يقول: «لا يوجد في أي مكان من العالم العربي حسابات أكثر برودة من هنا مفادها بأن هذا الوقت ليس مناسبا للهجوم على إسرائيل». وإذا كان هناك أية مشاكل في الأمن فمصدرها سوريا وخصوصاً دعمها للإرهاب الفلسطيني. وكان الحل، كما رأى سوندرز، «غارة يقوم بها جيش الدفاع الاسرائيلي على سوريا ثم يخرج منها»، ناصحاً الاسرائيليين بقوله: افعلوا ما ينبغي فعله، ولكن أكدوا على سرعة العمل ومحدوديته. «قبل وولتر روستو» (Walter Rostow) مستشار الأمن القومي الاقتراح وحوَّله إلى الرئيس: «نحن نتعاطف مع حاجة إشكول إلى وقف هذه الغارات (غارات الفلسطينين)، ولا نميل إلى القبول بأن هجوماً محدوداً على سورية يمكن أن يكون جوابه الوحيد». وعندما علم مسؤولون أمريكيون أخيراً بالحشد المصري في سيناء اعتبروه مجرد حشد رمزي، لأن ناصر لا يمكن أن يجعل السوريين يوقعونه في شرك الحرب. (٨١)

ثم جاء خبر إزالة قوات الطوارئ الدولية و«ضعف إرادة» يوثانت، حسب تعبير غولد بيرغ (Golderg) الذي استجاب لناصر.

وفجأة انتزعت سياسة الولايات المتحدة تجاه الشرق الأوسط من حالة اللا مبالاة ودخلت في حالة الطوارئ.. فشكلت مجموعة مراقبة للشرق الأوسط وضبط الأمور فيه من وزارة الخارجية، ووزارة الدفاع، ووكالة الأمن القومي (NSA) ووكالة

المخابرات المركزية (CIA)، بالإضافة إلى مجموعة من المحنكين في الشؤون الخارجية مثل ماك جورج بندي (Mc Gorge Bundy) ودبليو. أفريل هاريمان (W. Averell Harrima). وكان الهدف حسب تقديرات وولت روستو المنقحة، هو (آ) الحيلولة دون تدمير إسرائيل، (ب) وقف العدوان، (ج) وإبقاء يوثانت في الواجهة وتجميده». دون الاعلان عن أية التزامات أمريكية في تلك الفترة كلها.

وفجأة بعث الرئيس جونسون برسائل شخصية إلى عبد الناصر والأتاسي يحثهما على ممارسة ضبط النفس، وإلى كوسيجن يطالبه بممارسة نفوذه على العرب، محذراً إياه بقوله: «إن روابطكم وروابطنا بدول المنطقة ربما توقعنا في مصاعب، أنا واثق أن كلينا لا يسعى إليها». أُرسلت طلباتٌ إلى فرنسا وبريطانيا حول إمكانية «بعث الروح» في الإعلان الثلاثي، وتجميع قطع حربية غربية في شرق البحر المتوسط. وطرحت أسئلة حول استخدام المصريين للغاز السام. (٨٢)

وأكثر القضايا إلحاحاً، كانت إسرائيل وكيف ستتصرف. فهذا البلد الخاضع لأكبر نفوذ أمريكي في هذه المحنة ظل مصدر قلق عميق للمسؤولين الأردنيين. وكان الخطر يكمن في أن إسرائيل العاجزة عن الانتقام من سوريا لدعمها الارهاب، لا بد وأن تقوم بضربة استباقية أولى في سيناء بدون استفزاز مصر للقيام بهجوم كبير على إسرائيل. والنتيجة هي ضربة أخرى للموقف الأمريكي في العالم العربي، إن لم تكن أسوأ من ذلك: أي تدخل الاتحاد السوفياتي وربما نشوب حرب عالمية. وعندما طلب من وزارة الخارجية أن ترسل ما يطمئن ناصر أن إسرائيل لن تقوم بمثل هذا الهجوم، رفضت. إذ كان رأي المسؤولين فيها أنه إذا ما ضربت إسرائيل، فلسوف تبدو أمريكا متواطئة معها.

ومفتاح تجنب مثل هذه الكوارث، في رأي وولت روستو، يكمن في إقناع إشكول «ألا يصب الزيت على النار» فخير لإسرائيل أن تمتص الضربة الأولى، وتحرم السوفيات من أي أساس أخلاقي للتدخل، وعندها تقوم بهجوم معاكس. وعلى الرغم

من أنه سيلحق بإسرائيل إصابات كثيرة لكنها كانت واثقة من النصر، حسب تقديرات المخابرات الأمريكية. وبالتالي كان هدف واشنطن هو إيجاد السبل لتأخير الرد الإسرائيلي، وذلك من خلال شراء الزمن بفضل صفقات السلاح والمساعدات الاقتصادية، ومع ذلك، ثبت أن هذه المهدئات لم تكن فعالة عندما أغلق ناصر المضائق في ٢٢ مايو. (٨٣)

أخذ هذا الإعلان، الذي تم تلقيه أولاً من وكالة الأنباء الفرنسية، الإدارة الأمريكية على حين غرة، مرَّة أخرى. إذا كان جونسون قد شرع بكتابة رسائل إلى ناصر وإشكول يدعوهما إلى مزيد من ضبط النفس. وتبين أن مستشاري الرئيس في اجتماع لمجلس الأمن القومي عقد على عجل يجهلون تماماً درجة معرفة السوفيات المسبقة بتحرك ناصر أو حتى الدوافع الكامنة وراء ذلك. وقال لوشيوس باتل: «إما أن يكون ناصر قد تلقى أسلحة من السوفيات أكثر مما نعلم بها وإما أنه أصيب بمس من الجنون». عبر المسؤولون في البنتاغون عن قلقهم بشأن مقدرة الأسطول السادس على إعادة فتح المضائق عسكريا -لأنه يفتقر إلى قوات الإنزال البري، وإلى وحدات مضادة للغواصات- في حين ذكر راسك (Rusk) وجود معارضة قوية في مجلس الشيوخ لأي تحرك أمريكي من طرف واحد. وفي الوقت نفسه كان البيت الأبيض ووزارة الخارجية منهمكان في البحث عن نص الوعود التي قطعها دالاس (Dallas) إلى غولدا مائير، وعن التزامات الولايات المتحدة إلى إسرائيل؛ وعُثر على بعضها. والخطوة الملموسة التي اتخذت بالفعل هي إصدار أوامر للموظفين غير الحيويين في سفارات الولايات المتحدة في تل أبيب والقاهرة ودمشق بالرحيل إلى أمريكا. (٨٤)

وكما هو الحال في فرنسا، لم يكن العام ١٩٥٧في الولايات المتحدة كالعام ١٩٦٧. فهي لا تستطيع خوض حرب خارجية أخرى، ومازالت قواتها غارقة في مستنقع فيتنام، ومخيماتها وغيتواتها الريفية تشتعل. والجواب الواضح هو استباق ضربة إسرائيل الاستباقية بفضل رفع الحصار وإعادة حقوق العبور في المضائق. ولكن

كيف؟ فالفرنسيون معارضون لعمل ثلاثي، والأمريكيون يقاومون عقد قمة رباعية لخشيتهم أن يستخدمها السوفيات منبراً لدعايته. ومجلس الأمن في طريق مسدود. ومع ذلك برز، في خضم هذا الجو الخالي من أي حل، مفهوم الاسطول الدولي.

لم يكن هذا المفهوم جديداً؛ إذ دعت إليه إسرائيل أثناء أزمة السويس كوسيلة لإعادة ادعاء حقها في القناة، لولا أن قضى عليه دالاس. ولكن أعاد جورج تومبسون (George Thompson) البريطاني، بعد ذلك، إحياء الفكرة في ٢٤ مايو واستجاب لها الأمريكيون بحماس.

تدعو الخطة، بوجه خاص، إلى إصدار إعلان عن الدول البحرية تؤكد فيه حق حرية المرور في المضائق. فإن رفضت مصر الإعلان، يبحر أسطول دولي من الناقلات تحت حماية مدمرات الأسطول السادس ومعززاً بسفن حربية بريطانية، HMS Herms،HMS Victorious .

سوف تردع «قوة السبر» هذه الجهد المصري عن مواجهة هذه القافلة ومنعها من العبور، وإذا لزم الأمر تستدعي تعزيزات من «قوات تغطية» أكبر من تلك الموجودة في البحر المتوسط والمحيط الهندي. وتقوم القاذفات البريطانية والأمريكية بتحييد المطارات والقواعد والأهداف الاستراتيجية الأخرى في مصر، وتردع السوفيات عن التدخل. وفي حال اشتراك إسرائيل في هذه القافلة، فإن أية فائدة تجنيها تكون «عرضية» لأن القضية هي قضية حركة العبور، وليست الحقوق الإسرائيلية. وكما قال يوجين روستو إن «أوامر المسير» سوف يجري إعدادها في غضون أسبوعين، ثم يصدقها شخصياً من الرئيس. وكان اسم الخطة الرمزي «عملية سباق الزوراق في البحر الأحمر» أو اختصاراً «سباق الزوراق». (٨٥)

كانت ردود الفعل المبدئية على «سباق الزوارق» مشجعة. اجتمع جونسون في كندا لدى قيامه بزيارة قصيرة- غايتها الظاهرية رحلة «Expo ٦٧» - مع رئيس الوزراء بيرسون (Pearson) المهندس الأساسي لقوات الطوارئ الدولية، وقال له:

«مايك جاهز للالتحاق بالفريق.» ثم أردف قائلاً: «فهذا المسار سيحافظ على إسرائيل ثابتة.» فكان جواب ويلسون متفائلاً مثله، إذ قال: «أعتقد أن هناك بلدانا كثيرة في العالم لديها إحساس بأن السلم العالمي أهم من محاولة العمل من خلال أمم متحدة عاجزة و الاستمرار في رفع الأيدي وحدها... فمن يدري، حتى فرنسا ربما توافق ؟»

لقد دعم بعض العرب هذه الخطة، ولو سراً. ففي محادثات سرية جداً بين المخابرات المركزية الأمريكية والأمير محمد بن الملك فيصل السعودي، وعمر عزام ابن الأمين العام السابق لجامعة الدول العربية، وُصفت القافلة بأنها الوسيلة الوحيدة التي تنقذ الدول العربية المعتدلة. فعلى الرغم من أن قادة تلك الدول كانوا يقدمون خدمات كلامية لعبد الناصر، فهم يرحبون بجهد دولي يقلل من حجمه أو يدمره، كما قال محمد وعزام.

وبعد ذلك دخل مفهوم القافلة في صعوبات قبل انقضاء ٤٨ ساعة على ولادتها .فقد أظهرت الاتصالات المبدئية مع الحلفاء الأوربيين عدم حماسهم للعملية التي ربما تعرض إمدادها بالنفط العربي إلى الخطر، فضلاً عن خطر انجرافها في الحرب.عارض شاه إيران الكشف عن تجارته مع إسرائيل، وكان أصحاب السفن غير راغبين في تعريض سفنهم للخطر. حتى في الولايات المتحدة نفسها، في وزارة الخارجية وفي البنتاغون، أثيرت شكوك حول الحكمة من «خروج الولايات في مقدمة القافلة وطليعة خطة «سباق الزوارق» الأمر الذي يستعدي العرب ويجعل العبء اللوجستي ثقيلاً جداً على كاهل أمريكا زمن الحرب. كما ظهرت علائم تشير إلى احتمال عدم موافقة الكونغرس على الخطة - تلك الموافقة التي تعد شرطاً لازما مسبقاً للتنفيذ ومع ذلك، ينبغي عدم تمرير أية معلومة من هذه المعطيات إلى إسرائيل بل بالعكس، كان البيت الأبيض، أثناء محادثاته مع الممثلين الاسرائيليين يتفاخر باستمرار بالتقدم الحاصل في خطة «سباق الزوارق»، وبعدد الدول الراغبة في المشاركة فيها، وبالتزام الإدارة برؤيتها قيد التنفيذ. أخذ الاسرائيليون هذه

التقديرات والتكهنات مأخذ الأهمية - مبدئيا على الأقل إذ قال هارمان إلى روستو: «طالما أن الولايات المتحدة قد ألزمت نفسها بالقيام بعمل محدد،فإن مسألة التوقيت تغدو ثانوية». (٨٦)

بيد أن البرقية التي تلقاها إيبان من إشكول دلت على أن خطة «سباق الزوارق» بغض النظر عن توقيتها وفرص نجاحها، لم يعد لها صلة. لأن حرية العبور، حتى ولو استعيدت، لا تستطيع ضمان بقاء إسرائيل حيّة.

**وحدنا أم لا؟**

لم يكن دين راسك (Dean Rusk) غريباً على سياسات الشرق الأوسط. فبوصفه رئيساً لشعبة الأمم المتحدة في وزارة الخارجية الأمريكية في العام ١٩٤٧-١٩٤٨، كان منغمساً شخصياً في الحركة الأدبية الألمانية المناهضة لحركة التنوير الفرنسية (Sturm and Drang) المحيطة بمسألة إيجاد إسرائيل التي كان يعارضها مفضلاً إيجاد دولة ثنائية القوميات، يهودية - عربية، بدلاً منها. ثم، بوصفه رئيس مؤسسة روكفلر (Rockefeller) طرح عدة خطط للسلام قائمة على أساس الاعتراف المتبادل والتقسيم الوظيفي للقدس - رفضها العرب كلها. واستخلص من ذلك «أن ما من أحد يعمل من أجل السلام في الشرق الأوسط إلا ويضرب أو يهزم هزيمة نكراء من كلا الطرفين». ومع ذلك لم تحبط هذه النتيجة رجلاً نشأ من فقر ريفي وصعد إلى منحة رودس، إلى خدمة متميزة في الصين أثناء الحرب العالمية الثانية، ومن ثم أصبح وزير خارجية الولايات المتحدة في عهد رئيسين. ففي سن الثامنة والخمسين، أنقذ راسك المتحفظ والجني الغامض بلاده من أزمات عملاقة هي - أزمة برلين، وأزمة كوبا، وأزمة تونكين (Tonkin) - بنجاح أكبر من سواه. وقرر، أثناء هذا الوضع الملتهب الأخير في الشرق الأوسط، أن يستشير التعددية، واللا تدخلية، والأهم من ذلك كله الحصانة.

ولم يكن راسك غريباً عن أبا إيبان. وعلى الرغم من أن إيبان لا يعتبره «من بين الأمريكيين الذين أثير حماسهم القوي لدولة إسرائيل، «فإن راسك كان يشارك وزير الخارجية الإسرائيلي الحس العالمي، والرأي. كان لقاؤهما السابق في فندق وولدورف أستوريا(Waldorf-Astoria) في نيويورك في أكتوبر من العام ١٩٦٦، جزءاً من مهمة استكشافية للشؤون الدولية، بدءاً من الحرب في فيتنام إلى الوضع في جنوب أفريقيا، من جنون العظمة لدى ديغول الذي قال فيه راسك: («نحن لا نتعامل مع صليب لورين، بل مع روح بيتان (Petain) في العام١٩٤٠») إلى عجز يوتانت الذي قال فيه راسك بطرافة («لا يتوافر من هو أفضل منه»). وأظهر البروتوكول أن حوارهما كان مضحكاً:

**راسك:** هل لديكم تمثيل في كمبوديا؟

**إيبان:** سنرسل رجلاً إلى هناك الشهر المقبل.

**راسك:** كل ما أستطيع قوله هو أن ترسلوا طبيباً نفسانيا.

**إيبان:** سوف نرسل عضو كيبوتس.

**راسك:** ما هو ميزان مدفوعاتكم؟

**إيبان:** لدينا احتياط يقدر بحوالي ٦٠٠ مليون دولار.

**راسك:** ربما يكون بإمكانكم إقراضنا بعض المال. (٨٧)

لم تكن روح المرح سائدة، على أية حال، يوم الخميس في ٢٥ مايو عندما تضافر عقل راسك مع عقل إيبان في مسألة فوجي بوتوم (Foggy Bottom) هذه المرة. وصف وزير الخارجية الاسرائيلي مهمته بأنها «مصيرية» ووصف حالة إسرائيل بأنها شبيهة «بسفر الرؤيا». إذ قال: «منذ بدء الأزمة مازالت الحقيقة تزداد سوءاً أكثر من الاحتمالات، ولا تستطيع إسرائيل الآن أن تحصل على المزيد إن هي خُيرت بين الاستسلام والعمل.» وتابع القول: «إما أن أعود بضمانات أكيدة أو أن إسرائيل

ستشعر بأنها وحيدة. «ثم قال إيبان، بطريقة وصفها راسك بأنها«مرسلة على سجيتها» محدثة إحساساً بوجود حالة طوارئ، مقتبساً عبارة من رسالة آتية من القدس تقول: «هناك هجوم سوري - مصري شامل وشيك، يمكن أن يقع في أية لحظة «ثم أضاف قائلاً» يجب ألا يؤخذ الطلب بحرفيته. إنما المطلوب هو صدور بيان أمريكي «تحذيري رادع» إلى مصر.

لم يكن التحذير خبراً بالنسبة لراسك. فلقد تلقى باربر تقييماً مماثلاً صبيحة ذلك اليوم من وزارة الخارجية الإسرائيلية. قال سفير راسك: «أنا واثق من أن مخاوف إسرائيل حقيقية، «واصفاً معلومته هذه بأنها» نتيجة تحريات مخابراتية صعبة. «طلب وزير الخارجية الأمريكي من ضيفه وهما يشربان الخمر، أن يقرأ النص الكامل للرسالة بصوت مرتفع وببطء، وأن تعطى واشنطن مزيداً من الوقت لتحقق في مدى صحتها.

وبينما كان إيبان ينتظر، كانت وكالات المخابرات الأمريكية «تتحرى» التحذير الإسرائيلي، وكانت النتيجة التي أيدتها المخابرات البريطانية والأمم المتحدة هي أن الانتشار المصري مازال دفاعي. ولا توجد هناك أية علامة على حدوث هجوم وشيك. وقال السفير نولت في القاهرة: إن تحذير إسرائيل ليس سوى ستار دخاني لتغطية هجومها الوشيك. أما راسك فكان أكثر تحفظاً إذ قال لمدير المخابرات المركزية (CIA) ريتشارد هيلمز: (Richard Helms) إذا كانت هذه المعلومة خطأ، فهي كما يقول فيوريللو لاغارديا (Fiorello La Guardia) «رائعة».

وعندما التقى راسك ثانية مع إيبان ،قال له: «من غير المنطقي أن يشن عبد الناصر حرباً في هذه المرحلة.» وفيما يتعلق بالضمانات إلى إسرائيل، لا تستطيع الولايات المتحدة أن تصدر بياناً على غرار بيانات حلف الناتو مفاده أن أي عدوان على إسرائيل هو عدوان علينا «بدون موافقة الكونغرس. فقد عارض ٤١ عضواً الكونغرس تصرف الولايات المتحدة بمفردها في المضائق، كما قال راسك؛ وهناك

آخرون كثر يعارضون أي التزام عسكري في الشرق الأوسط في حين مازالت أمريكا تقاتل في فيتنام. وبالتالي ينبغي إسداء نصيحة إلى إسرائيل بأن تضع ثقتها بالأمم المتحدة، وبالاقتراح البريطاني المتعلق بإرسال قافلة سفن من الدول البحرية، وإصدار بيان عنها. وأعلن وزير الخارجية الأمريكية عن ضرورة إعادة بحث مسألة توضيع قوات الطوارئ الدولية في الأراضي الإسرائيلية. إذ ما هو حيوي أكثر ألا تبدأ إسرائيل بالأعمال العدوانية. قال راسك محذراً إيبان: «لا أريد الافتراض بأن معلومتكم هذه تعني إشعارنا مقدماً بضربة إسرائيلية مسبقة مخططة سلفا فذلك خطأ رهيب.»

استمرت المباحثات بصورة متقطعة وغير ممنهجة، عبر فيها إيبان عن رغبة إسرائيل في «التوافق» مع المبادرة الدولية وحث البيت الأبيض على إرسال كتاب إلى إشكول مفاده «أننا سنفتح المضائق.» اختتم راسك المباحثات بإبداء اهتمام «بموقف مدى الذراع» الذي أطلعت عليه إسرائيل السفارة الأمريكية في تل أبيب، وبمزيد من تبادل المعلومات المفتوح. وهكذا كان: لا ضمانات، ولا التزامات، سواء معلنة أو سرية. لم يكن إيبان قلقاً، برغم ذلك كله، مدركاً أن راسك عرف بحدسه الديناميكية السياسية الكامنة وراء إنذار إشكول، ومدركاً كذلك أن البحث الحقيقي مازال قادماً، مع جونسون. وقال بصورة عفوية: «لم يحدث لدي انطباع بأن الولايات قد قررت الدخول في تحالف دفاعي جديد معقد بين تشكيلة متنوعة وأن تكون الوجبة الأولى في حفل عشاء». (٨٨)

أقيم حفل العشاء ذلك المساء على سطح وزارة الخارجية بدعوة من يوجين روستو. وخلافاً لأخيه، مستشار الأمن القومي، الذي اندمج تماماً في الحياة الأمريكية، فإن نائب وزير الخارجية، روستو، كان مغرقاً بالتأكيد دائماً على جذوره اليهودية، بتبهير أحاديثه بكلام يديشي. كان حماسه لإسرائيل واضحاً. ومع ذلك، لدى افتتاحه المباحثات، كرر ما قاله راسك من قبل: لا يستطيع الرئيس ضمان أمن إسرائيل بدون موافقة الكونغرس، التي من غير المحتمل الحصول عليها في الظروف الراهنة. وبدلاً من ذلك على إسرائيل أن تثق بمنهج يبدأ بمراجعة الأمم المتحدة لقضية المضائق، ويتلو ذلك بيان من الدول البحرية، وتسيير قافلة سفن.

لخص إيبان في جوابه وعود دالاس التي قطعها في العام ١٩٥٧ إلى إسرائيل وأكد على الحصول على أية قرارت من الأمم المتحدة بأسرع ما يمكن - في غضون أربعة أيام على الأكثر. وإلا أصبح الإغلاق أمراً واقعاً، وتفقد إسرائيل ثقتها بقافلة السفن التي سترسلها الدول البحرية. وفيما خلا هذه التأكيدات، لم يكن هناك، على ما يبدو، فجوات كبيرة بين موقفي الولايات المتحدة وإسرائيل.

ويذكر موشي رافيف (Moshe Raviv)، مساعد إيبان قائلاً: «لا يمكن أن أنسى الموقف الهادئ الواقعي الذي حُلل فيه الوضع ونحن نرتشف الخمرة.» وصف وزير الخارجية «هادئاً... جاداً، معتدلاً «سياسة واشنطن بأنها» أفضل فرصة للسلام إذا ما تبين أن معلومات المخابرات الأمريكية بشأن نوايا المصريين غير صحيحة. «ثم تابع الكلام مؤكداً أنه يعلم بأن الرئيس يفتقر إلى سلطات إصدار الضمانات التي يطلبها إشكول، وأن «الرسالة لن تصاغ بتلك الطريقة لو أنني كنت في تل أبيب .» ولدى إحاطته علماً بأن الولايات المتحدة سوف توصل إلى سفارتها في القاهرة، «رسالة تحذيرية»، اكتفى إيبان بهذه الخطوة كرد على مطلب إسرائيل» كما قال روستو. (٨٩)

قام إيبان، في محاولة له لبث الهدوء، وتهدئة روع إشكول البادي في رسالته، بتخفيف إحساس واشنطن بحالة الطوارئ.وكتب روستو إلى السفير البريطاني باتريك دين (Patrick Dean) يقول: «لقد توقعنا إعلامنا بأنهم سيضربون، ولكن بدلاً من ذلك طلبوا فقط توضيحاً بشأن خطة الدول البحرية المقترحة.» ونصح راسك الرئيس جونسون، استعداداً للقاء إيبان، أن «تطلق» الولايات المتحدة يد إسرائيل وتتركها تدافع عن نفسها أو تعلن موقفاً إيجابياً، بدون أي التزام، من فكرة القافلة. وفضل وزير الخارجية الأمريكية الموقف الثاني الذي يُمكّنُ الولايات المتحدة من تأخير ضربة إسرائيل الاستباقية. عندئذ يمكن أن تأخذ مباحثات الأمم المتحدة مجراها، وتستطيع الولايات المتحدة، بالتالي، أن تبحث عن إجراءات بديلة من بينها توضيع قوات الطوارئ الدولية في الأراضي الإسرائيلية.

كتب راسك يقول لا يتوقع أن يضغط إيبان في محادثاته مع الرئيس باتجاه مطلب ضمانات أمنية رسمية لإسرائيل. (٩٠)

يمكن الحصول على صورة أدق لتفكير إسرائيل من هارمان الذي حضر حفل عشاء روستو وخرج منه غاضباً. وأرسل هذا المحامي المدرب في اكسفورد سابقاً والسفير منذ عام ١٩٥٩، برقية ساخنة إلى القدس يتهم فيها الإدارة الأمريكية بأنها تعطي إسرائيل «بضاعة لا تباع» وأنها تتصرف بسوء نيّة:

«مازالت الولايات المتحدة تأخذ على عاتقها، خلال ال ١٢ يوماً المنصرمة، كبحنا عن حماية حقوقنا وأمننا... إنهم (الأمريكيين) يصدوننا بإعطائنا انطباعاً بأنهم متورطون معنا وأنهم سوف يقفون إلى جانبنا. وهم يعلمون أننا سوف نقاتل في النهاية لحماية مصلحتنا الحيوية، ولكن نتيجة لتدخلهم وطمأناتهم لنا، ربما نقاتل الآن في ظروف عسكرية صعبة... والواقع أن ما قالوه لإيبان هذا المساء لا يتضمن شيئاً محدداً ومعيناً، ولا يحتوي على جدول زمني محدد ملزم، وفوق ذلك كله، لا يحتوي على أي التزام محدد يحمل الولايات المتحدة مسؤولية ملزمة تجاه العقبة.»

كان الانطباع في القدس، مهتزاً. فإذا كان جونسون غير راغب في الالتزام تجاه إسرائيل، فإن إيبان لا يكون قد نفذ شروط مرجعيته .فأعيد بيان هذه الشروط بلغة لا تقبل التأويل حتى لدى وزير الخارجية نفسه، على النحو التالي: «تواجه إسرائيل خطر هجوم شامل من قبل مصر وسورية. وفي هذه الحالة يعد تطبيق الالتزام الأمريكي حيويا -إعلاناً وعملاً- على الفور، أكرر، إصدار إعلان في الحال، عن حكومة الولايات المتحدة مفاده أن أي هجوم على إسرائيل هو بمثابة هجوم على الولايات المتحدة والتعبير الملحوظ عن هذا الإعلان هو: إصدار أوامر إلى قوات الولايات المتحدة الموجودة في المنطقة بالاشتراك في العمليات مع جيش الدفاع الإسرائيلي ضد أي هجوم عربي محتمل على إسرائيل. ومهما كان الجواب الذي تتلقاه من الولايات المتحدة لا تخرج عن قولك إنك ستكتب إلى حكومتك. وبالنظر

لخطورة الوضع، يجب إيصال هذه الملاحظة إلى أعلى سلطة أمريكية بدون تأخير. وفي حال غياب الرئيس تُسلَّم إلى وزير الخارجية راسك... نؤكد على السرية التامة لكل ما ينجم عن هذه البرقية. وإياك أن تهتف لنا بشأن هذه المسألة مهما كانت الظروف». (٩١)

لم يخف الاستياء وعدم الثقة البادیان في هذه الأوامر على إيبان. فأبرق غاضباً إلى القدس يطلب تفاصيل الإعدادات المصرية المزعومة. ولكنه، بقدر ما كانت حكومته قد أربكته، قد فقد الصبر أيضاً مع الأمريكيين.

وعندما هتف له راسك فيما بعد طالباً منه تأجيل اللقاء بالرئيس -أجاب إيبان بمظهر عدائي قائلاً- إنه يريد وقتاً كافياً لقراءة التقرير الصادر حديثاً جداً حول محادثات يوتانت وناصر. وأخبر راسك محذراً من النتائج النفسية المدمرة «لتأخير عودته، بأن مجلس الوزراء الإسرائيلي سينعقد يوم الأحد وسوف يكون» من أكثر الاجتماعات حسماً في تاريخنا «ولذلك لا يستطيع التغيب عنه. «وأقول لك بصراحة بأني أرى أننا سندخل في مواقف معادية الأسبوع القادم.إن ما يجري هو حصار لا بد من مقاومته وأشك أن أمراً ما في هذه المرحلة يمكن أن يغير تلك الحال الظاهرة. والشيء الوحيد الذي يمكن أن يكون ذا أثر هو تأكيد رئيسك بأنه قرر بلا تحفظ فتح المضائق.»

كانت لهجة راسك الغاضبة مسموعة، ولكنه لم يجب سوى «لقد فهمت.» وأغلق سماعة الهاتف.

ومع ذلك، حاول إيبان أن يقلل من أهمية تعليمات حكومته في الجولة الثانية من المحادثات مع وزير الدفاع الأمريكي روبرت ماكنمارا (Robert Mcnamara) والجنرال إيرل ج. ويلر (Earle G.Wheeler) رئيس هيئة الأركان المشتركة. قال: «شعرت أني قمت بواجبي بإيصال هذه، الفكرة، إلى الرئيس وأني لم أعد بحاجة لإضاعة الوقت في وساوس لا قيمة لها.» وبدلاً من التأكيد على المخاطر التي

تواجهها إسرائيل، أصاخ السمع إلى وبيلر وماكنمارا وهما يشرحان كيف أن جيش الدفاع الإسرائيلي سيربح المعركة في أسبوعين حتى ولو هوجمت إسرائيل، من جبهات ثلاث معاً - وفي أسبوع واحد إن بدأت إسرائيل بالهجوم. لأن إسرائيل كانت متفوقة على أعدائها تدريباً، وأنظمة اتصالات، وحوافز تفوقاً كبيراً، وبالتالي ليس هناك ما تخشاه. وقال الأمريكيون إذا كان لدى المخابرات الإسرائيلية معلومات حول خطط الهجوم المصرية فليكشفوا عن مصدرها، وإلاّ لا يكون لها أساس لتبرير قيامها بضربة استباقية. (٩٢)

ارتبك الأمريكيون، وكان ارتباكهم مفهوماً وله ما يسوّغه. ففي حين تتنبأ الحكومة الإسرائيلية بالحرب، فإن المصادر الأمريكية والبريطانية ومصادر الأمم المتحدة كلها متفقة على أنه لا تغيير في المواقع المصرية، حتى إن إيبان بدا وكأنه يتنصل من ذلك الادعاء. ومع ذلك لم يكن البيت الأبيض راغباً في المخاطرة.

وفي أحد آخر أعمال مصطفى كامل في منصبه، التقى وولت روستو.كان الجو حميماً ولكنه متوتر.لقد تضايق مستشار الأمن القومي من آخر الدعايات المصرية، خصوصاً تلك التي تزعم وجود مؤامرة سرية بين الموساد وال CIA للإطاحة بحزب البعث في سوريا ووضع قوات طوارئ دولية في الأراضي السورية. قال روستو إلى السفير المصري: «يعتقد أعداؤكم أن هجوماً مصرياً وسورياً أصبح وشيكاً. ونحن نعلم أن ذلك ليس بالبال. ولا يمكن أن تصدق أن حكومة الجمهورية العربية المتحدة لا مبالية إلى هذا الحد. ومثل هذا المسار سيسفر بالطبع عن أخطر النتائج المحتملة». وسعى روستو في اختتام حديثه أن يلطف من تحذيره بوصفه أنه «ودي» وبالإشارة إلى أن مثل هذا التحذير قد وجه إلى إسرائيل. وكان جواب كامل الوحيد هو إنكار حقيقة هذه الإشاعة -ربما كان ترحيل الأمريكيين من المنطقة هو الذي أطلق العنان لمثل هذه الإشاعات- والاستشهاد بالتقارير المصرية المتعلقة بخطط إسرائيل للحرب. ووعد أن «عبد الناصر سوف يتعاون إلى آخر مدى مع الأمم المتحدة». (٩٣)

وكمزيد من التحذير، أبرق البيت الأبيض تلك الليلة إلى موسكو بفحوى التحذير الإسرائيلي. وكان جونسون صريحاً في إعلام القادة السوفيات بأنه لا يصدق التحذير، ومع ذلك يتوقع من السوفيات أن يدققوا في الأمر مع المصريين ولا يشجعوهم على أي عمل حربي.

وأحيط المصريون والسوفيات علماً بأن أمريكا لا تشجع الحرب ولا تؤيدها ولكن ما هو حال الإسرائيليين؟ بدت الرسائل المثقلة بالاحتمالات والنذر الواردة من القدس متضاربة مع ما يطرحه إيبان: استعداداً للضربة وانفتاحاً على الدبلوماسية. ألقيت مهمة معرفة أي هذه الرسائل أكثر دقة وصحة، وتحديد المسار الحاسم الذي ستتخذه الولايات المتحدة، على عاتق شخص واحد، هو آخر المتحادثين مع إيبان.

لقد وصف وصفاً متبايناً جداً بحيث كان يبدو أحياناً رجلين آخرين.فمثلاً كان في نظر ريتشارد هيلمز الذي كان يعمل معه عن كثب: «رجلاً لطيفاً يستمتع المرء بالعمل معه، رجلاً عند كلمته، رجلاً ذا فهم كبير بالمشاكل الانسانية.» أما روستو فيقول: «كان دائماً خاسراً، وضحية الظلم.» وقال عنه يوجين، شقيق روستو: «كان رجلاً رائعاً ذا قلب كبير.» ووجد دفئه وعطفه تعبيراً عنهما في دفاعه عن الحقوق المدنية وفي حربه ضد الفقر، وفي رؤيته للمجتمع العظيم.

بيد أن مراقبين آخرين كانوا يرون فيه جانباً آخر: «عديم الضمير، متعطشاً للسلطة، مناوراً». كل هذه العيوب بالإضافة إلى تورطه في فيتنام جعل الكثيرين ممن يؤرخون لحياته يدينونه بأنه نرجسي تراوده الشكوك دائماً، طاغية يدفعه «جوع قوي بحيث لا يقف أمامه أي اعتبار أخلاقي ولا تهمه الفضيلة». (٩٤)

كان موقف ليندن جونسون (Lyndon Johnson) تجاه اليهود ودولة إسرائيل يتَّسِم بالازدواجية.كانت له روابط حميمة مع النشاط اليهودي في الحزب الديمقراطي، وخاصة برئيسه، أحد أعلام هوليود، أرثر كريم (Arthur Krim) وزوجته ماتيلد (Matilde) الإسرائيلية الأصل، ومع أبي فينبيرغ (Abe Feinberg)

ضابط الارتباط بينه وبين الجالية اليهودية. إنه لمن غير المألوف لجونسون القادم من منطقة هيل (Hill Country) الريفية في اتكساس، أن يختار اليهود - الأخوان روستو، وكاتب خطاباته بن واتنبرغ (Ben Wattenberg)، ومساعده في الشؤون الداخلية لاري ليفينسون (Larry Levinson) - ليكونوا كبار مستشاريه، كما عين أرثر غولدبيرغ (Arthur Goldbery) رئيس محكمة العدل العليا سفيراً للولايات المتحدة في الأمم المتحدة، وكان وثيق الصلة جداً بقاض يهودي آخر هو أبي فورتاس (Abe Fortas). وكان مستشار البيت الأبيض، هاري س. ماك فيرسون الصغير(Jr،Harry C.Mcpherson.) منحازاً إلى إسرائيل علناً، مثله في ذلك كمثل أحد مساعدي الرئاسة جون.ب.روش (John P.Roche) الذي قال ذات يوم: «إنني أنظر للإسرائيليين وكأنهم تكساسيون، وأنظر إلى عبد الناصر وكأنه سانتا أنا (Santa Ana) وكان من أسباب اختياره ليكون معاوناً لكينيدي في العام١٩٦٠، انتقاده لإدارة أيزنهاور في تعاملها مع أزمة السويس، وكونه مؤيداً للمساعدات الهائلة لإسرائيل، وقدرة جونسون على اجتذاب أصوات اليهود».

ثم جاءت فيتنام والدور غير المتجانس الذي لعبه اليهود في الحركة المناهضة للحرب.أظهر استفتاء أُجري في العام١٩٦٧ أن حوالي نصف يهود أمريكا ضد سياسة جونسون في فيتنام. كتب على يافطة شعبية: «ليس بالضرورة أن تكون يهودياً لتكون مناهضاً للحرب في فيتنام». وعندما أكد فينبيرغ (Feinberg) لجونسون قائلاً إن دفاع أمريكا عن سايغون (Saigon) يعد دليلاً على أن أمريكا ستحمي إسرائيل، أجاب بقوله: «إذن لماذا لا يصدّق يهود أمريكا ذلك؟» كان يهود أمريكا، في رأي جونسون، جاحدين لدفاعه عن إسرائيل، ومنافقين لعدم دعمهم حرباً تخوضها أمريكا ضد أعدائها - الفيتكونج (Vietcong) مثلهم في ذلك كمثل الفدائيين الفلسطينيين.وتحول غضبه إلى إسرائيل، كذلك، لرفضها الوقوف علناً إلى جانب الحرب وممارسة الضغط على أصدقاء أمريكا لدعم سياساتها الآسيوية. مثل هذه الضغائن عززّت اشمئزازه من سياسة الانتقام الإسرائيلية ومن

مقاومتها قيام أمريكا بتفتيش مفاعل ديمونة. وشكى ذات يوم إلى فينبرغ قائلاً: «إسرائيل تحصل على أكثر مما ترغب أن تعطي. إنها طريق في اتجاه واحد.» (٩٥) ومع ذلك ظل جونسون مؤيداً لإسرائيل بقوة، إذ قال مرّة إلى إيبان: «إسرائيل دولة صديقة بكل ما تعنيه الكلمة من حقيقة.» وعلى الرغم من تحالفه الوثيق مع شركات النفط، فإنه لم يسع قط ليفوز بالحظوة عند العرب. وكان يتجاوز بصورة روتينية معارضة وزارة الخارجية والبنتاغون، فيوافق شخصياً على صفقات معونات إلى إسرائيل. (٩٦)

ذلك التنافر والازدواج - الاشمئزاز من إسرائيل والإعجاب بها - كان موجوداً في المكتب البيضاوي يوم الجمعة السادس والعشرين من مايو. كتب جونسون إلى هارولد ويلسون يقول: سأرى إيبان، وأشعر أنه لا بد من مقابلته. «كان أمامه ملف الوعود الرئاسية بضمان أمن إسرائيل، التي استطاعت وزارة الخارجية أخيراً جمعها بمساعدة إيفرون. وكان في الملف شهادة خطية من أيزنهاور، مضمونة من قبل وولدروسوتو الذي سافر أيضاً إلى غيتيسبيرغ (Gettysburg) بشأن التزامات العام١٩٥٧ . كان عبء هذه الالتزامات ثقيلاً على كاهله، تماماً كما كانت تقديرات المخابرات التي تفيد بأن إسرائيل سوف تحقق نصراً سريعاً، لأنه رأى تقديرات مماثلة لمقدرة أمريكا في فيتنام.كان مصمماً ألا يدع إسرائيل أن تدمر .ومع ذلك كان LBJ غاضباً أيضاً «لأنه جرى الالتفاف عليه» من قبل اليهود الأمريكيين الذين أمطروا البيت الأبيض بوابل من البرقيات والوفود تطلب تدخله لصالح إسرائيل. فأي انطباع سيتولد إذا ما استقبل وزير الخارجية الاسرائيلية، ثم شنت إسرائيل الحرب في اليوم التالي؟». (٩٧)

سأل الرئيس في لقاء مع كبار المسؤولين في البيت الأبيض الساعة الواحدة والنصف: «ماذا ينبغي أن أقول إلى إيبان؟ فلسوف أعلق الجرس في عنق القط عند المغيب. فأنا بحاجة لأعرف ما سأقول» لخص لوشيوس باتل الموقف الأمريكي

تجاه العرب بقوله: «مهما فعلنا سنقع في أشكال. إذا لم نقف إلى جانب إسرائيل فإن الراديكاليين العرب سيصفوننا بأننا نمر من ورق. وإذا ما وقفنا إلى جانب إسرائيل، فإننا سنؤذي صورتنا إيذاء خطيراً عند العرب.» وقال جوسيسكو (Joe Sisco) من وزارة الخارجية: «إن الإسرائيليين يخشون من أن تجد الأمم المتحدة وسيلة ما لإضفاء الشرعية على الأمر الواقع.» وأضاف همفري (Humphrey) نائب الرئيس: «وجود إسرائيل في خطر» مستشهداً بالطلعات الجوية المصرية فوق مفاعل ديمونة ولخص الجنرال ويبلر خطة «ريجاثا -سباق الزوارق-». ولكن ماكنمارا كان ضد وعد إسرائيل بأي شئ ملموس. وقال القاضي فورتاس(Judge Fortas) ولا تستطيع الولايات المتحدة ترك إسرائيل وحدها.» فاعترض راسك قائلاً: «إذا بدأت إسرائيل بإطلاق النار فعليها أن تنسى الولايات المتحدة.» وهكذا انتهى الاجتماع بدون نتيجة حاسمة. وبدلاً من أن يقدم مستشارو جونسون له أجوبة، تركوه بقليل من الأسئلة. «لو كنتُ مكان إيبان وقلنا لك إننا نعتمد على الأمم المتحدة ومجموعة القوى البحرية فهل يرضيك ذلك؟» «هل سأبدي ندماً يوم الاثنين لأنني لم أعط إيبان المزيد اليوم؟». (٩٨)

لم يبد لجونسون أي حل سوى استغلال الوقت. رأى أن باستغلال عطلة عيد الذكرى الطويلة في نهاية الأسبوع كذريعة لتأخير إيبان يوماً أو يومين واثقاً من أن الحكومة الإسرائيلية لن تتخذ قراراً في غيابه، يعطي البيت الأبيض وقتاً لمراجعة خياراته في حين تأخذ التغطية الصحفية المكثفة لزيارة إيبان -التي تديرها إسرائيل حسب اعتقاد جونسون- بالتضاؤل.فقد صمم على تأخير إيبان إلى أجل غير مسمى، ربما إلى أن يتواسط إيبي إيفرون.

قال جونسون إلى إيفرون عندما عرَّفه به ماتيلد كريم (Matilde Krim) قبل سنة: «سمعت عنك كل طيب من صديقي هاري ماكفيرسون (Herry Mcpherson) وأبي فينبيرغ (Abe Feinberg). ومنذئذ نشأت صداقة فريدة وترعرت بين الرئيس

والوزير الإسرائيلي المطلق الصلاحية؛ كانت صداقة وثيقة جداً بحيث أن رسائل إيفرون كانت تسلم للرئيس باليد في اليوم نفسه. ومهما كانت مودة جونسون هذه، التي شك فيها هاري واصفاً إياها بأنها خطة أو لعبة من جونسون ليكسب ود يهود أمريكا، فإن كل من يعرف إيفرون وافق على أنه -البيروقراطي الحكومي والاتحادي- يتمتع بمقدرة غير عادية لحبك الأمور. يقول أحد زملائه السابقين، مردخاي غازيت: (Mordechai Gazit) «إنه يستطيع مقابلة أي مسؤول رفيع الساعة الثانية بعد الظهر». (٩٩)

كانت الساعة ٥:٣٠ مساء عندما هرع إيفرون إلى البيت الأبيض لدى معرفته أن جونسون قد رفض تحديد موعد للمحادثات مع إيبان. وطلب أن يقابل وولت روستو وقال له بفظاظة: إن عدم الاجتماع، مع وجود الهيئات الصحفية مجتمعة في الخارج، سينشر خبر عن الصدع الخطير الذي حدث في العلاقات الأمريكية - الإسرائيلية. وسوف يصل العرب والسوفيات إلى استخلاص واضح. كان روستو قد شرع يشرح كيف أن الرئيس بحاجة إلى وقت لدراسة القضايا، وكيف أنه اشمأز من تكتيكات إسرائيل الضاغطة، عندما وصلت رسالة من المكتب البيضاوي.كان إيفرون على وشك الدخول.

حياه جونسون، ويبدو على وجهه الغضب، قائلاً: «أنا أفهم خطورة وضع إسرائيل، ولكني لا أستطيع أن أفعل أكثر مما قاله لك راسك وروستو». كان يرغب في متابعة خطة القافلة مدعياً أن إيطاليا والأرجنتين قد وافقتا على دعم الفكرة، ولكن عندما تتحقق بعض الشروط. وعلى الرغم من أن الأمم المتحدة كانت «صفراً» وأن الولايات المتحدة لا تدين ليوثانت بشيء فإن الإدارة الأمريكية كانت مصممة على استنفاد جهود كل المنظمات الدولية لإيجاد حل سلمي. وعندما تفشل الأمم المتحدة -وكان جونسون متأكداً من فشلها- يسعى الرئيس إلى الحصول على موافقة الكونغرس لاتخاذ عمل ملموس في الخليج.

وقال: «بدون ذلك، فما أنا إلا صديق أعرج لإسرائيل». مستذكراً كيف أن الكونغرس لم يغفر لترومان ما قام به في كوريا. وطمأن إيفرون أن الولايات المتحدة عند وعدها بفرض حرية المرور، ولكنه لا يجازف بحرب مع السوفيات فقط لأن إسرائيل حددت يوم الأحد موعداً نهائياً. وإذا ما فجّرت إسرائيل الحرب فسوف يكون ذلك على مسؤوليتها وتتحمل نتائجها .تحدث جونسون لمدة أكثر من ساعة وإيفرون صامتاً، قال: «ليست إسرائيل تابعة لأمريكا ولا أمريكا تابعة لإسرائيل. ولكن وافق الرئيس في النهاية على لقاء إيفرون شريطة ألاّ يتسرب شيء إلى الصحافة. (١٠٠)

تلى ذلك فترة من الفوضى، انطلق خلالها إيفرون إلى إيبان، ودخل وزير الخارجية الإسرائيلي وهارمان إلى البيت الأبيض من باب جانبي. وقال أحد الحراس: «هناك فتى يقول: إن اسمه إيبان يريد مقابلة الرئيس». وكانت الصحافة على أهبة الاستعداد لنشر الخبر مستنتجة أن جونسون جعل الإسرائيليين ينتظرون قبل السماح لهم بالدخول.

بدا المكتب البيضاوي الأصفر، ظاهرياً، وكأنه غرفة حربية. إذ كان فيها بالإضافة إلى الـLBJ، ماكنمارا، ووبيلير، والأخوان روستو وسيسكو، مع السكرتير الصحفي للرئاسة جورج كريستيان (George Christian) ومع ذلك أعطي الكلام أولاً إلى إيبان، فبدأ بصورة مسرحية، قائلاً: «إننا على حافة القبر بتوقعات قلقة». ثم لخص تاريخ التزامات الولايات المتحدة بأمن إسرائيل واستشهد بآخر البرقيات الآتية من القدس، ملقياً بظلال قاتمة من الشك، ليس على رفاه الدولة، بل على وجودها ذاته. وعلى الولايات المتحدة أن تصدر بياناً تقول فيه إنها كانت تنسق مع إسرائيل استراتيجيتها العسكرية ولسوف ترد على أي هجوم عربي على إسرائيل. واختتم كلامه بقوله: «أن السؤال الذي أريد الحصول على جواب له هو هل لديكم الإرادة والعزم لفتح المضائق؟» ثم تساءل: «هل سنقاتل وحدنا أم أنتم معنا؟».

تردد جونسون لحظة قبل أن يجيب متكئا بقرب إيبان الذي اعتقد أنه رأى في عينيه نظرة عذاب». ثم تكلم الرئيس بصورة حازمة: «أنتم ضحية عدوان.» ثم وصف. «بعبارات فخمة»، وبدقة رأيه في يوثانت وقراره بسحب قوة الطوارئ الدولية من سيناء ولكنه يريد رغم ذلك أن يستنفد أولاً كل آفاق الأمم المتحدة. وتابع القول: «لست ملكاً في هذا البلد... ولا أنفعك ولا أنفع رئيس وزرائكم إذا كان ما أستطيع قيادته هو أنا نفسي.. وأعلم أن دمكم وحياتكم في خطر. دمنا وحياتنا في خطر في أمكنة عديدة وربما تكون كذلك في أمكنة أخرى... لا أملك صوتاً واحداً ودولاراً واحداً لكي أتصرف قبل دراسة هذا الأمر في الأمم المتحدة».

وعندئذ فقط أكد جونسون أنه يمكن إرسال قافلة في غضون أسبوعين، وأردف قائلاً: «أنا لست فأراً ضعيفاً أو جباناً، إننا سنحاول. وما نحتاجه هو مجموعة من الدول البحرية خمسة أو أربعة أو أقل، أو حتى نحن وحدنا. وأن ما تستطيع قوله لمجلس وزرائك هو أن الرئيس والكونغرس والبلد كله سوف يدعمون خطة لاستخدام أية وسيلة أو كل الإجراءات لفتح المضائق». وقال: «لقد كشفت مباحثات برلمانية مع بعض الشيوخ دعماً حذراً للخطة، ولكن إسرائيل تستطيع الإسهام كذلك مستخدمة علاقاتها في الخارج.فلديكم في إسرائيل أفضل المخابرات وأفضل السفارات، لذلك دعوها تعمل لحشد جميع المهتمين لدعم إبقاء المضائق مفتوحة».

ثم انتقل جونسون إلى أعوص القضايا وأكثرها شوكاً: وهي خطورة بدء إسرائيل بالضربة الأولى. وقال مستشهداً بما توصلت إليه كل فروع المخابرات الأمريكية: «ليست هناك أية نية مصرية لشن هجوم... وإذا كانت لديهم نية فإن النصر حليف إسرائيل حتماً». وحذر جونسون إسرائيل من المخاطر التي يمكن أن تواجهها إسرائيل إذا ما تصرفت وحدها: «إذا قرر مجلس وزرائكم ذلك فإنما يكون على مسؤوليته. أنا لا أتراجع، ولا أغير موقفي، ولا أنسى شيئاً مما قلته... بل أقول من الضروري ألا تظهر إسرائيل نفسها مسؤولة في نظر الأمريكيين والعالم عن نشوب حرب. لن تكون إسرائيل وحدها ما لم تقرر هي أن تتصرف وحدها».

## هناك تأكيد على هذه العبارة في النص الأصلي

لقد كرر السطر الأخير ثلاث مرات ثم قدم لإيبان رسالة مكتوبة باليد من راسك -«يجب أن أؤكد على ضرورة ألا تكون إسرائيل مسؤولة عن بدء الأعمال العدوانية... ولا نتصور أن إسرائيل سوف تأخذ مثل هذا القرار»- مؤكداً موقفه مرَّة أخرى. ثم قال: «يعرف مجلس وزرائنا سياستكم، إن ما يريدون معرفته هو ما تنوون فعله.»

لم يقدم إيبان جواباً. بل حذر فقط من التورط في مناقشات طويلة في الأمم المتحدة، واقترح تشكيل لجنة ارتباط إسرائيلية - أمريكية للإعداد لأية أعمال عدوانية وبإشارة من الرئيس، وافق ماكنمارا على بحث الأمر شريطة أن يظل سرياً للغاية. (١٠١)

عند تلك الملاحظة الملتبسة، انتهى الاجتماع الذي كان اهتمام العالم كله منصباً عليه، والذي كان يمثل ذروة الجهود لتلافي حرب عربية - إسرائيلية ثالثة. طرح إيبان، قبل خروجه، سؤالاً آخر: «ألا أكون مخطئاً إن أبلغت رئيس الوزراء أنكم تنزعون إلى بذل كل جهد ممكن لضمان بقاء المضائق والخليج مفتوحة للملاحة الحرة والبريئة؟» فأجابه جونسون: «نعم لن تكون مخطئاً» مختتماً اللقاء بمصافحة قوية مع إيبان بحيث شك إيبان بأن «يحصل على مثل هذه المصافحة ثانية». ثم تبع الرئيس ضيفه إلى القاعة ليذكرّه، مرّة أخرى، بأن «إسرائيل لن تكون وحيدة ما لم تقرر هي أن تتصرف وحدها».

هناك خلاف في تفسير فهم جونسون للحديث.فالرئيس نفسه كتب في مذكراته: «جاؤوا مفعمين بالصبر، وكذلك كنت أنا... قال ماكنمارا إنه أراد فقط إلقاء قبعته في الهواء، وقال جورج كريستيان إنه كان أفضل اجتماع من نوعه يحضره.» ولكن مصدراً آخر وصف جونسون قابعاً في كرسيه يتنهد قائلاً: «لقد فشلت.إنهم سيخوضون الحرب.» ومع ذلك ذكر شخص آخر هو جون بي روش (John P.Roche) أن جونسون

كان يتحدث مع وولت روستو بدون أي تكلف ويشربان الشراب الصحي د.بيبر (DR.Pepper) ويقلدان إيبان، «صورة مصغرة عن وينستون تشرشل». ثم سأل روستو ماذا تظن الإسرائيليين فاعلين؟ فأجاب مستشار الأمن القومي زاعماً: «سوف يضربون» ووافق LBJ على ذلك. «نعم سيضربون ولن نستطيع أن نفعل شيئاً». (١٠٢)

خرج إيبان من اللقاء مصعوقاً بـ«منطق العجز» لدى جونسون؛ وبصورة «الرئيس المشلول» الذي تكلم «بعبارات المهزوم» وفي حين شعر أن الأمريكيين تجاوزوا التزامهم الذي قطعوه على أنفسهم في العام ١٩٥٧ بحرية العبور، فإن عدم صدور بيان مشترك قد نسف ذلك الوعد تماماً. وقد تعززت تعابير إيبان في نيويورك في اليوم التالي عندما حذره غولد بيرغ بشأن الاعتماد كلياً على الإشارات «المشهورة» التي أبداها الأخوان روستو وغيرهما من المستشارين.كان السفير المقتنع بأن ما من دولة أخرى سوف تلتحق «بسباق الزوارق» (خطة ريجاتا) فظاً في نصيحته، إذ قال: «بما أن الأرواح سوف تزهق، وأن أمنكم مهدد، أصبح لزاماً عليك أن تخبر مجلس وزرائكم بأن بيان الرئيس يعني الحصول على قرار مشترك من الكونغرس، وأن الرئيس لا يستطيع الحصول على مثل ذلك القرار بسبب الحرب الفيتنامية».

ومع ذلك لم تثبط همة إيبان. إذ أخذ يفكر وهو في طريقه إلى المطار مع جدعون رافائيل (Gideon Rafael) أنه طالما كانت الولايات المتحدة راغبة في «إتخاذ أي إجراء أو حتى كل الإجراءات التي تقدر عليها لفتح المضائق «فمن الصعب أن تُخَيّب إسرائيل إذا ما قامت بكل الإجراءات التي تقدر عليها». وربما يفقد الوعد قيمته عندما يحين الوقت في النهاية -وعلى إسرائيل- من وجهة نظر إيبان - أن تتصرف وحدها في الحال. (١٠٣)

**يدخل كوسيغن** (Kosygin).

في الوقت نفسه تقريباً الذي أقلع فيه إيبان من مطار كينيدي كان وزير الدفاع المصري قد وصل إلى الكرملين لإجراء محادثات. وكانت القضية متماثلة تماماً ولا تقل أهمية وحسماً؛ إنها تقتضي المواقف التي ستتخذها القوى العظمى في حالة نشوب حرب. وسعى شمس بدران، مثله في ذلك كمثل إيبان، إلى الحصول على

جواب محدد من السوفيات على هذه المسألة، ومع ذلك سيتبين أن الإجابات السوفياتية مراوغة كالإجابات الأمريكية تماماً. قال أحد المراقبين لشؤون الكرملين في وزارة الخارجية واصفاً الموقف السوفياتي على النحو الآتي: «بما أنه يبدو أن السوفيات يحددون عتبة الخطر في الشرق الأوسط على مستوى أعلى مما نحدده نحن، فإن السياسة السوفياتية تفوح بنكهة التظاهر بالرغبة في عمل شيء خطير.» أما مابدا للمراقبين الخارجيين فكان أكثر من مجرد محاولة لتغطية الانقسامات بين القيادة السوفياتية حول كيفية التعامل مع الشرق الأوسط.

وكانت تلك الصدوع بادية في إشارات الصراع الصادرة عن موسكو. ففي حين استمرت الصحافة الرسمية في كشف مؤامرات إسرائيل لاحتلال سوريا -بالتزامن مع قصف أمريكا لهانوي (Hanoi) -كان الدبلوماسيون السوفيات يؤكدون على التزامهم بتجنب العنف. وهكذا قام القائم بالأعمال السوفياتي في واشنطن، تشارنياكوف (Tcharniakov)، بطمأنة وولت روستو بأن الاتحاد السوفياتي لا يرغب في مواجهة الولايات المتحدة في الشرق الأوسط، وأنه يحث العرب على كبح الجماح.وقال ميخائيل فرولوف (Mikhail Frolov) الملحق التجاري السوفياتي في تل أبيب إلى نظيره الأمريكي: «إننا نستطيع أن نمنع مصر من إطلاق النار، فهل تستطيعون منع إسرائيل من تسيير سفينة عبر مضائق تيران؟» وقال السفير أنا تولي دوبرينين (Anatoly Dobrynin) لدى عودته إلى وطنه إلى موسكو من واشنطن، في إجازة، إلى السفير الأمريكي، ليولين تومبسون-(Llewellyn Thom nin): «أعتقد أن بإمكاننا منافستكم في بذل قصارى جهودنا لتلافي الحرب.» وأقسم نيكولاي تروفيموتش فيديرينكو (Nikolai Trofimovich Federenko) سفير الاتحاد السوفياتي إلى الأمم المتحدة، إلى غولد بيرغ (Goldberg) بأن «الاتحاد السوفياتي هو آخر بلد على الكرة الأرضية يرغب في إثارة حرب في الشرق الأوسط.». (١٠٤)

ومع ذلك، لم يحذر الاتحاد السوفياتي عملياً مصر وسوريا من مغبة الحرب، وفي الوقت نفسه ظهرت مقالات في البرافدا (Pravda) وغيرها من الصحف التي تسيطر عليها الدولة، تحثها على المضي قدماً. كتب تومبسون يقول: «لم ترافق هذه

البيانات بتحذيرات خاصة ونصائح بكبح الجماح، فإن القادة العرب سيفهمون هذه البيانات بأنها تسويغ ودعم للمسار الذي هم عليه. «واختتم قوله بأن السوفيات كانوا راضين عن ترك أمريكا تتعامل مع الأزمة وحدها الأمر الذي يثير غضب العرب، مطمئنين إلى أنهم سيخرجون (السوفيات) منتصرين مهما كانت النتائج.» حتى ولو هزم الإسرائيليون جيرانهم العرب، فإن السوفيات يرون أن ذلك سيولد كراهية في نفوس العرب للغرب الأمر الذي يمكّنهم من إعادة توطيد مركزهم في العالم العربي». (١٠٥)

بدت الأزمة، في الواقع، تلعب بخفة ومهارة في أيدي الكرملين حتى ٢٢ مايو وإعلان ناصر الحصار. لم يتلق السوفيات إنذاراً مسبقاً بهذه الخطوة، وتجنبوا امتداحها. إن التشكيك بحق دولة أخرى في الملاحة الحرة يعد مشكلة عند الروس الذين مازالوا منذ قرون يناضلون للحصول على حرية المرور عبر مضيق الدردنيل، إضافة إلى أنهم من الموقعين على اتفاقية جنيف للعام ١٩٥٨ حول المضائق الدولية. ولكن طالما أن الإغلاق لم يطلق شرارة الفرح في موسكو -«فإنه لم يكن مسموحاً البدء في حرب ببساطة، لأن بضعة سفن لن تكون قادرة على الإبحار من العقبة إلى السويس»، كم قال أحد العلماء السوفيات- ولا يمكن أن يدان عبد الناصر. والجواب الوحيد عند السوفيات هو دعم العرب بالمعنى العام دون الدخول بالتفاصيل. لذلك مَيَّز تشوفاخين (Chuvakhin) في محادثاته مع القادة الإسرائيليين، بين «مبدأ» حرية العبور، وبين سيادة مصر التي لا يطعن فيها على مضائق تيران. وهكذا حذرت البرافدا قائلة: «إذا ما حاول أحدهم الاعتداء في الشرق الأدنى فإنه لن يواجه قوة البلدان العربية الموحّدة فحسب، بل سيواجه أيضاً قوة المعارضة من الاتحاد السوفياتي والشعوب المحبة للسلام».

إن غموض التهديد ترك الباب مفتوحاً للتأويل. فهل يعني أن الاتحاد السوفياتي سيساعد مصر إذا ما هوجمت، كما فهم الكثيرون من العرب؟ أم أنه، كما اعتقد الأمريكيون، دليل على عزوف السوفيات عن الالتزام بأي عمل معين وابتعادهم عن ناصر؟. (١٠٦)

هذه هي الأسئلة التي سعى بدران وحاشيته المؤلفة من عشرة أشخاص الحصول على إجابات عنها، كان مضيفهم الأساسي كوسيغن، رئيس الوزراء البالغ من العمر ٦٣ سنة، وتكنوقراطي لينيغرادي سابق رُفّع بعد الإطاحة بخروتشيف (khrushchev) إلى موقع يأتي في المرتبة الثانية بعد بريجنيف (Brechnev). كان كوسيغين الذي يصفه زملاؤه بأنه عالي الذكاء وزعيم لا لون له، يحتكم دائماً إلى الحكمة، ولم يقتنع في يوم من الأيام بقيمة العرب الحقيقية كحلفاء.

ولم يكن متأكداً من أن الأمريكيين سيراقبون الأحداث بسلبية إذا ما هوجمت إسرائيل. وبما أن قواتهم التقليدية مقيَّدة في فيتنام فإن رد الولايات المتحدة على التهديد في الشرق الأوسط ربما يكون بما تبقى لديها من وسائل - وهي الأسلحة النووية.

حذر رئيس الوزراء السوفياتي بدران، بعد أن نحى جانباً ادعاءه بأن الجيش المصري جاهز وقادر على هزيمة إسرائيل، من تدخل بريطاني وأمريكي في المضائق ونصح ضيفه بالتوصل إلى تسوية. إذ افتتح كلامه قائلاً: «إننا سندعمكم، ولكنكم قد حددتم هدفكم وحققتم نصراً سياسياً. فمن الأفضل الجلوس إلى مائدة المفاوضات بدلاً من أن تخوضوا حرباً بالسيف.» ووافق على تلبية طلبات مصر الحالية من السلاح، ولكن بعد ثلاثة أشهر، ومن ثم «يدرس» طلبات إضافية. أما الأسلحة إلى منظمة التحرير الفلسطينية فهي خارج الموضوع. فقد قال كوسيغن لضيفه: «نحن لا نريد أي جزء من منظمة التحرير الفلسطينية أو جيشها. أنتم أحرار في أن تقدموا لهم ما تشاؤون، ولكن فكروا ملياً فيما تفعلونه كيلا يجروكم إلى الحرب». (١٠٧)

لقد انعكس خط كوسيغن المتمثل في مقولة «زغ عندما تكون في المقدمة». في موقف وزير الخارجية وأليكسي شيبورين (Alexei Shiborin) رئيس دائرة الشرق الأوسط، ومعاون وزير الخارجية سيميونوف( Semyonov). قال للمصريين في لقاء دام ليلة كاملة في منتجع سيميونوف الصيفي إن «الاتحاد السوفياتي ليس جاهزاً ولا راغباً في الدخول في أية مواجهات. فقد عانوا بما فيه الكفاية في الحرب العالمية الثانية... وأنه آن الأوان كي تخفف مصر حدة التوتر».

بيد أن تبايناً حاداً اظهر بين الموقف الذي يدعمه كوسيغن والدبلوماسيون والموقف الذي عرضه الجنرالات اتباع بريجنيف، مثل وزير الدفاع غريشكو (Grechko) المتمرس في معارك الحرب العالمية الثانية في القوقاس (Caucasus) الذي كان يرى في الشرق الأوسط مصلحة استراتيجية عليا للسوفيات.

لقد أبدى إعجابه بجاهزية مصر العسكرية التي شلت الغرب، حسب ادعائه. وعلى الرغم من أنه أحجم عن نصيحة مصر ببدء الحرب، حتى وإن هوجمت. وصف غريشكو بيان صحيفة البرافدا بأنه مجرد بيان من عدة بيانات تعزز دعم موسكو لعبد الناصر وقضيته، قائلاً: «ما من شك أبداً في التزام الاتحاد السوفياتي بتقديم العون السياسي والمادي إلى العرب... حتى ودعمهم روحياً».

تركت ملاحظات غريشكو انطباعاً مذهلاً عند بدران الذي لم يتول قيادة زمرة، رغم أنه برتبة لواء. حقق بدران الصغير نسبياً، إذ كان عمره حينذاك ٣٨ عاماً، ذو الوجه المدوَّر الخالي من علائم المهابة، نحيل الجسم، طويل ضامر، ذو سلطة واسعة فقط من خلال خدمته للمشير عامر مؤكداً سيطرته على الجيش. كان بدران مصمماً على أن ينتزع من السوفيات ما يريد سماعه المشير، وهو صياغة مكررة للوعد الذي سعى إيبان للحصول عليه من الولايات المتحدة «أي إن الحرب ضد مصر تعني حرباً ضد الاتحاد السوفياتي». فكانت عبارات غريشكو قريبة من هذه المعادلة، وكان بدران ميالاً إلى استيعابها متجاهلاً كلام كوسيغن. قال بدران بعد عقد من الزمن متذكراً: كانت الرحلة من وجهة نظر عسكرية فاشلة، أما سياسياً فقد حققت الأثر الإعلامي الدعائي المطلوب. «أبرق نائب وزير الخارجية المصري، الفقي (al-Feki) والسفير غالب (Ghaleb) الحذران من مثل هذا النجاح على وجه الدقة، نسخة من بروتوكول المباحثات مباشرة إلى ناصر وكانت الرسالة ستصل في ١٣ يونيو، أي في وقت متأخر لا يكون فيه لها أي أثر». (١٠٨)

كان بدران ما زال في موسكو عندما وصلت برقية في الساعات الأولى من ٢٧ما يو من واشنطن تتضمن إنذاراً بهجوم عربي وشيك. كانت هذه الرسالة، في نظر كوسيغن، تأكيداً لما أعلنه بدران من أن مصر كانت تُعِدُّ للضربة الأولى. ومما صدمه أكثر معرفته بأن الإسرائيليين علموا بخطط مصر وأنهم ينوون، بلا شك، القيام بضربة استباقية. فسارع رئيس الوزراء السوفياتي إلى تطيير برقيات إلى جونسون وويلسون يحذرهم من أن «إسرائيل منهمكة بنشاط في إعدادات عسكرية تهدف بوضوح إلى القيام بعدوان على البلدان العربية المجاورة». وزعم أن مثل هذا الهجوم لا يمكن أن يُشن بدون دعم أنكلو أمريكي «فلا يختلف اثنان في ذلك»، وهدد أن يتدخل لوقفه.

وقال في هذه البرقيات: «إذا ما اقترفت إسرائيل عدواناً وبدأت عملاً عسكرياً فإننا سنقدم العون إلى البلدان التي ستكون ضحية العدوان». أما أكثر الكلمات حدة فقد احتفظ بها كوسيغن لإشكول، إذ قال: «من السهل إشعال نار ولكن إطفاء الحريق لن يكون أبداً سهلاً كما يتصور اولئك الذين يدفعون إسرائيل إلى حافة الحرب». (١٠٩)

لم يكتف كوسيغن بالرسائل المكتوبة، بل أصدر تعليماته إلى سفيريه في القاهرة وتل أبيب للاتصال بقادة البلدين ويوقظهما من نومهما إذ لزم الأمر ويحذرهما من خطر الحرب.

وهكذا اندفع تشوفاخين (Chuvakhin) في الساعة ٢,١٥ صبيحة يوم السبت إلى فندق دان (Dan) في تل أبيب حيث كان إشكول يقضي ليلته، وأقنع الحراس بضرورة إزعاجه. وقرأ رسالة كوسيغن بصوت مرتفع وطلب أن يعرف فيما إذا كانت إسرائيل تنوي إطلاق الرصاصة الأولى. فأجابه إشكول ومازال يرتدي بيجامته قائلاً: «المصريون، ياسيدي، قد أطلقوا الرصاصة الأولى في هذه الحرب». وسكب للسفير بعض عصير البرتقال الدافئ مما تبقى من الاجتماع السابق في كوب

الحمَّام. ثم قال مازحاً: «على الرغم من أننا لسنا بلداً متقدماً ذا حقوق تاريخية كسوريا، ألا يصغي مبعوث سام إلى وجهة نظرنا؟ ألا أدعى إلى موسكو؟» ولكن السفير ظل يطرح الأسئلة حول خطط إسرائيل وظل إشكول يتحاشى الإجابة. ورشقه بسؤال ممهداً له بقوله: «من المقبول في العالم أنه عندما يقدم السفراء أوراق اعتمادهم إلى الرئيس فإنهم يلزمون أنفسهم بحفظ السلام - فكيف حافظت على وعدك؟ والآن لم تطلق الرصاصة الأولى فحسب، بل قذائف وألغام في كل مكان». فاقترح السفير أنه مازال بالإمكان التوصل إلى حل سلمي، فانفجر إشكول لدى سماعه هذا الاقتراح، قائلاً: «من فضلك... من فضلك!! أعطنا قشة نتعلق بها. طريقة واحدة. اقتراحاً واحداً، قل لي. طالما هناك سلام وهدوء». (١١٠)

غادر تشوفاخين فندق دان الساعة الرابعة صباحاً مرتبكاً ومقتنعاً بأن مهمته لم تحقق شيئاً. ولا يمكن أن يقول ديمتري بوجيداييف (Dmitri Pojidaev) الشيء نفسه في القاهرة، على أية حال، عندما طرق باب عبد الناصر في تلك الليلة ذاتها.

## غروب في الفجر

قرأ بوجيداييف، السفير السوفياتي في القاهرة، رسالة كوسيغن إلى عبد الناصر، مضيفاً أن رسالة أشد لهجة من هذه قد أرسلت إلى إشكول، وجاء نص الرسالة على النحو التالي: «قبل ساعة أخبرني الرئيس جونسون ان القوات المصرية تُعدُّ لهجوم على مواقع إسرائيلية، وأن ذلك الهجوم على وشك الوقوع. فإن حدث مثل هذا فإن الولايات المتحدة ستعتبر نفسها متحررة من التزاماتها للاتحاد السوفياتي بممارسة الكبح». وكان رد عبد الناصر متماسكاً هادئاً: «لا بد للجميع أن يعرفوا أن مصر لا تريد الحرب وأنها لا تسير في ذلك الاتجاه، بل ستدافع عن نفسها إن هوجمت».

ولكن الذي أدركه عبد الناصر، ولم يدركه السفير السوفياتي، هو أن عملية «الفجر» قد اعدت لتنطلق في غضون ساعات عند شروق الشمس.

إذ صدرت الأوامر النهائية إلى العناصر المشمولة فيها -أسراب الطائرات، والقوات البحرية، والقوات البرية- التي كانت كما يبدو جاهزة للبدء في الهجوم على إسرائيل.وكان عامر يتفاخر بالطلعات الجوية فوق ديمونة، وكيف أنها بفضل آلات تصوير محمولة باليد، أوقعت طائرات الميغ إسرائيل في هلع. ومما لا شك فيه أن الصهيونيين سيهربون من أول طلقة.

فهل اشترك عبد الناصر في هذه المفاخرة أم لا، لم يكن معروفاً، بيد أن مزاجه تعكر جداً وبسرعة هائلة لدى تسلمه رسالة كوسيغن. إذ تبين له أن زبدة الرسالة ليس احتمال إخفاق السوفيات في مساعدة مصر، ولا حتى تدخل الأمريكيين، بل إنها كانت دليلاً على أن إسرائيل قد حصلت على الأسرار المصرية وأفسدتها. (١١١)

هرع عبد الناصر إلى مقر القيادة العليا ودعا إلى اجتماع طارئ مع عامر. وأخبره الرئيس بانكشاف خطة ((الفجر)) وأنه لا بد من إلغائها على الفور.

عارض عامر ذلك متذرعاً بقوله: «تخسر مصر بالانتظار الحرب قبل أن تبدأ». ولكن ناصر، حاول، بما يرقى إلى إصدار الأمر، أن يبين له سبب تغيير رأيه بشأن توجيه الضربة الأولى، وكيف أنه خير لمصر أن تحجم. «وتساءل أي عمل نقوم به الآن لا يعطي جونسون وإسرائيل فرصة أخرى يتطلعان إليها ويبحثان عنها؟».

وعلى الرغم من أن العالم يعتبر الحشد الإسرائيلي مجرد روتين فإنه ينظر إلى المصريين كمعتدين، خصوصاً بعد اتخاذ القرارات المتعلقة بقوات الطوارئ الدولية وتيران. وقال عبد الناصر: «ستجد بلدان عديدة أن إصدار جونسون أمره للأسطول السادس للبدء بعمليات ضدنا أمراً عادلاً. إذا ما كانت مصر البادئة بالهجوم». وعلى الرغم من اعتقاده بأن الحرب مازالت محتملة، لكنه كان يرى أيضاً أن بالإمكان التوصل إلى حل سلمي، ربما من خلال مهام يوثانت وصلاحياته.

يعود تغيير عبد الناصر المفاجئ لرأيه بشأن عملية «الفجر» إلى اعتبارات أمنية منطلقة من خوفه من تدخل الأمريكيين في وقت لم يعرف فيه بعد موقف الاتحاد السوفياتي، ومن حساسيته تجاه الرأي العام العالمي. ولكن يكمن خلف هذه الاعتبارات العلاقة البيزنطية القائمة بينه وبين مشيره عامر، والتي بموجبها يستطيع عامر تأخير تنفيذ طلب ناصر بقوله: «سأفكر في الأمر».

وقد فعل ذلك، لدى عودته إلى مقر قيادته الخاص في بيته، حيث أبرق إلى بدران في موسكو يقول: «يا شمس، يبدو أن هناك تسربا للمعلومات» ثم أبرق إلى صدقي محمود يسأله: متى تستطيع تطبيق خطة إيلات؟.

كان قائد سلاح الجو المصري، البالغ من العمر ٤٣ عاماً، تواقاً لتلقي إشارة الهجوم.

لأنه كان يعتقد أن إسرائيل لن تسمح بإغلاق مينائها الجنوبي ولذلك لابد أن توجه الضربة الأولى ما لم تقم بها مصر أولاً. فأجاب الآن بحماس: «سنكون جاهزين في غضون ساعة على الأكثر».

صدرت الأوامر على الفور، وصعد الطيارون على طائراتهم بانتظار إشارة الانطلاق. ولكن بعد ٤٥ دقيقة، تلقى صدقي برقية أخرى تقول: «ألغ الخطة» أصيب القائد باليأس: «ليست تلك هي النقطة». ثم تحدث عن ضغط سوفياتي. لقد جلب ذلك بعض العزاء لصدقي محمود، فقال: «عندما تحدثت إلى الطيارين ظننت أنهم سيقفزون سعادة. فهم يريدون أن يفعلوا شيئاً».

لقد مات الهجوم المصري تقريباً، إذ ضرب بالصدفة بتدخل حصل قبل ساعة الذروة. وجاءت الرصاصة القاتلة فيما بعد ذلك الصباح بأسر خمسة ضباط مصريين، اعتقد الجميع بأنهم مساهمون في الخطة، كانوا قد تعثروا على الحدود الإسرائيلية. ثم وردت تقارير من سيناء تقول إن قوة من (٥٠٠) عربة إسرائيلية شوهدت تعبر إيلات متجهة نحو الغرب. ويبدو أن هدفها كان الصحراء المقابلة لقلعة الكونتيلا المصرية - وبصورة محددة إلى حيث اخترق جيش الدفاع الإسرائيلي

الجبهة المصرية في العام ١٩٥٦. فأمر عامر بإرسال تعزيزات على وجه السرعة لمواجهة هذا التهديد الإسرائيلي. وعندما حل المساء، انطلقت مدرعات الجنرال شاذلي من رفح في رحلتها المضنية إلى الكونتيلا دافنة في غبارها ما تبقى من عملية «الفجر». (١١٢)

## وقف تنفيذ مؤقت

انسحب الشاذلي، وحط أبا إيبان في المطار، ليلاً كذلك، ونقل على وجه السرعة من المطار إلى الاجتماع الطارئ لمجلس الوزراء. كان المزاج هناك نكداً متفجراً. فكثير من الوزراء لم يصدق التقارير المتفائلة التي أرسلها إيبان حول محادثاته في لندن وباريس وواشنطن. ونشرت صحيفة دافار اليومية عنوانا رئيسيا مفاده أن «الولايات المتحدة لم تقترح عملاً فعَّالاً لفتح المضائق» من الملاحظ أنه لم يرسل أي محضر للمباحثات المصيرية التي جرت في البيت الأبيض. أصر إيبان على عرض محتوياته بنفسه شخصياً.

وهكذا بحث المسؤولون الإسرائيليون، الذين حجبت عنهم المعلومات، عن أية معلومة تلقاها والي باربر (Wally Barbar) من وزارة الخارجية. حث السفير الأمريكي، المذعور من يأس الاسرائيليين، واشنطن على تلبية طلب إسرائيل بتشكيل لجنة ارتباط عسكرية، على الأقل لتبعد الضغط باتجاه الحرب، قائلاً: «يمكن أن يقدر إيبان على تقديم صوت العقل لدى وصوله، ولكني مقتنع أن وضع حكومة إسرائيل متوازن بصعوبة الأمر الذي يجعل مثل هذه الممارسة الإضافية جديرة بالاهتمام». ولكن لجنة الارتباط لم تصل، إنما الذي وصل هو إيبان فقط الذي يواجه الآن ثمانية عشر وزيراً في «أطول ليلة» كما قال الكولونيل ليور (Lior).

انعقد الاجتماع على خلفية مظلمة من تهديدات الحزب القومي الديني بالخروج من الحكومة إن هي صوتت لصالح الحرب، وتحذيرات الجيش من وقوع كارثة إن لم تصوت لصالح الحرب، وفي الشارع، خارج مكتب إشكول، كانت أمهات الجنود

المستنفرين وزوجاتهم يتظاهرن لصالح تعيين دايان Dayan وزيراً للدفاع. وكان خطاب ناصر في اتحادات العمال قد نشر في إسرائيل على نطاق واسع، بالإضافة إلى افتتاحية هيكل التي رحب فيها بالحرب. ودوّى راديو القاهرة في ذلك اليوم قائلاً: «إننا نتحداك يا إشكول، أن تجرب كل أسلحتك. اختبرها، وسوف تجد أنها تجلب الموت والفناء لإسرائيل». وكانت المدرعات والقوات العراقية التابعة للوائين الأول والثامن في طريقها إلى دمشق، في حين كانت جيوش الأردن ولبنان وحتى الكويت البعيدة على أهبة الاستعداد للقتال. (١١٣)

بدأ الاجتماع بإيجازات قدمها ياريف ووايزمن حول حال الاستعدادات العربية للحرب ومخاطر الهجوم الوشيك. وكشف رابين عن قلقه من تدهور معنويات الجيش ومن احتمال أن تشرع الولايات المتحدة قريباً في استرضاء ناصر وتهدئته. وكان يقول: «الأنشوطة تضيق حول أعناقنا»، عندما دخل إيبان متعباً من السفر ولم يحلق لحيته بعد.

بدأ إيبان بالبرقيات التي أرسلت إليه في واشنطن وأدانها بوصفها «خدعة رخيصة» صممت لتبرير هجوم إسرائيلي، وإرباك جونسون. ومع ذلك لم يطل الحديث في هذا الموضوع، إذ تحول بسرعة على الخطة الأمريكية.

وصف مراحلها -إجراءات الأمم المتحدة، إعلان دول بحرية، ثم إرسال القافلة، والفوائد التي تجنيها إسرائيل بفضل الانخراط في المبادرة الدولية. كان جونسون «حازماً كالصخرة» بشأن حق حرية المرور، وأنه سيؤمنها بالأسطول السادس إن لزم الأمر، ولكنه لن يؤيد ضربة استباقية». فإذا ما هاجمت إسرائيل أولاً. قال إيبان محذراً «فإن ذلك سيكون على مسؤوليتها وحدها».

تبع حديثه نقاش صاخب، جرى خلاله فحص محضر إيبان جونسون بنظرة تلمودية. قال أحد الوزراء: «نصيحة إسرائيل بألاَّ تتصرف وحدها ليست كإصدار أوامر لإسرائيل ألا تتصرف أبداً». في حين أشار آخر إلى خلو النص

من تهديدات بفرض عقوبات كما حصل في العام ١٩٥٦. فهل يمكن أن تكون واشنطن تلمّح عن عجزها في مساعدة إسرائيل في دفاعها عن نفسها بدون حرمانها علنا من ذلك الحق؟

حذّر إيبان من المبالغة في التعمق في كلمات جونسون. لم يذكر تحذير غولد بيرغ له بأن وعد الرئيس كان مشروطاً بما سيتم في كابيتول هيل (Capitol Hill)، مع أن القافلة ستكون جاهزة للانطلاق في غضون «أسابيع قليلة». وليست هذه الفترة طويلة، إذ يمكن الانتظار خلالها، إذا ظل الجيش مستنفراً، وظلت إسرائيل مركزة اهتمامها على القضايا الجوهرية، أكثر من تركيزها على هيبتها. وقال: «لا يوجد هناك أرامل وأيتام بسبب الهيبة».

وقال إيغال ألون (Yigal Allon)، وزير العمل، الذي كان في زيارة دولة إلى الاتحاد السوفياتي، المعارضة ضد إيبان. بذل في موسكو قصارى جهده لإقناع المسؤولين في الكرملين بصدق إسرائيل فيما يتعلق بضبط النفس، ولكن، لدى عودته إلى تل أبيب، طرح سؤالاً: «هل من أحد يجلس على هذه المائدة يعتقد حقاً بأن علينا ترك العدو يقوم بالضربة الأولى لمجرد إقناع العالم بأنهم هم الذين بدؤوا الحرب؟».

وتنبأ ألون بتجديد سوريا لعمليات الأرهاب لأن يدي إسرائيل مقيدة الآن، وتنبأ بأن مصر سوف تضرب ديمونة في اللحظة التي تتحدى فيها أمريكا الحصار. وسوف يُصوّر عبد الناصر نفسه البطل الذي أنقذ الشرق الأوسط من الأسلحة النووية. «وأكد ألون أن إسرائيل لا تسعى لمكاسب إقليمية، بل للمقايضة على حرية المرور، ولكسرعظام العدو».

وعبر عن ثقته الكاملة بمقدرة جيش الدفاع الإسرائيلي على هزيمة المصريين «سينزل مستوطنو الجليل إلى الملاجئ، ومن ثم نتدبر السوريين».وسوف تفوز إسرائيل باحترام العالم عندما تفعل ذلك.

أبدى عدد من الوزراء إثر بعضهم بعضاً موقف ألون. أم حاييم غيفعاتي (Haim Givati) المسؤول عن الزراعة فقد حذر من تحول إسرائيل إلى محميمة أمريكية، ومن الضرر الذي سيلحق بمعنويات الأمة.

وتحدث زفي دينشتاين (Zvi Dinstein) وإسرائيل جاليلي (Israel Galili) عن عامل ثوب الامبراطور الجديد «كشف ناصر عدم رغبة إسرائيل في القتال -وعن سقوط الأردن المحتمل. وأكد موشي كارمل (Moshe Carmel) أن «إنقاذ إسرائيل يتم فقط بتدمير قوة مصر. وكل من يقول إننا لا نستطيع العيش هنا» كما أن الجنرالان رابين ووايزمن قد ألقيا بثقلهما مع ألون. واحتج وايزمان على اتهام جيش الدفاع الاسرائيلي بالافتقار إلى الإيمان، واعتبر ذلك إهانة شخصية، وتبجح قائلاً: «سنهزم العرب لأننا ببساطة، أفضل منهم» أما رابين فكان مكبوتاً أكثر، عندما قال: «إذا ما ظنت دولة إسرائيل أن وجودها معلق على التزام أمريكي، ولا يعتمد على قوتها الذاتية- فإنه ليس لدي ما أقوله».

ومع ذلك، كان يهب بعد كل معارض، من يؤيد إيبان. فكان هناك حايم موشي شابيرا الذي صرح في الماضي: «إنني أثق بالوعود الأمريكية أكثر من ثقتي بمقدرة جيش الدفاع الإسرائيلي على تحطيم الجيش المصري». كما عبر أران (Aran) وارها فتنغّ (Warha fting) عن إيمانه بـ (LBJ)، وأبدى إسرائيل بارزيلاي (yisrael Bar-zilai) من الجناح اليساري في حزب مابام (Mapam) قلقة من أن الدعم الأمريكي لإسرائيل أقل من الدعم السوفياتي للعرب. في حين حَذَّر موشي كول (Mosh kol) وزير السياحة من مخاطر استبعاد واشنطن، وعبر وزير المالية بنحاس سابير (Pinchas Sapir) عن شكه، بصورة غير متوقعة، بمقدرة إسرائيل على تحمل الإصابات فيها كما يتحمل العرب. وأختتم كلامه بقوله: «من الصعب خلق دولة ولكن من السهل فقدانها».

وقع ليفي إشكول بين فكي هذين المعسكرين، وتنازعته أراؤهما ثانية. راجع رئيس الوزراء منافع ومساؤى الموقف -خسارة إسرائيل لقوة الردع مقابل فترة من الزمن للحصول فيها على مزيد من السلاح والمال؛ عزوفه عن الثقة بجونسون لمعارضته

حاجة إسرائيل لإظهار نفسها بمظهر الفتيان الطيبين» وكان يعلم أن الخطة الأمريكية لم تقدم أي حل للتهديد المصري او للإرهاب الفلسطيني، وأنها قيدت كثيراً مقدرة إسرائيل على المناورة. ومع ذلك كان مشهد تحدي القوة العالمية الأعظم المتعاطفة الوحيدة مع إسرائيل، يبدو مروّعاً.

كانت هذه الانقسامات في أفكار إشكول تعكس الانقسامات الحاصلة في مجلس الوزراء. وكما قال رابين: «دعا إشكول المرهق الواهن» إلى استراحة في الساعة الرابعة صباحاً ليمنح الوزراء بضعة ساعات ينامون فيها قبل أن يبدؤوا الاقتراع. وحثهم قائلاً: «يجب أن نقرر بأيدي من سنضع هذا الجيل، في يد القدر، أم في يد أمريكا، أم في يد تشوفاخين». انفض الاجتماع، في حين وردت خلال الساعات القليلة التالية برقيتان بالغتا السرية من واشنطن.

البرقية الأولى عزَّزت مصداقية إيبان في تأكيده المتكرر بأن جونسون يدعم خطة «سباق الزوارق» وأنه راغب في متابعة «أية إجراءات، بل كل الإجراءات التي يقدر عليها لإعادة فتح المضائق. وورد من راسك ملحق يشير إلى أن كندا والأرض المنخفضة كانتا ميالتين للانضمام إلى العملية».

أما البرقية الثانية التي سلمها باربر باليد، فكانت تتضمن رد فعل الرئيس على تأكيد موسكو بأن إسرائيل، وليست مصر، هي التي تعد لتوجيه ضربة.

وكان رده على النحو التالي: «من الضروري ألا تقوم إسرائيل بأي عمل عسكري استباقي فتجعل بذلك نفسها مسؤولة عن البدء بالعدوان، وحذر من احتمال تدخل سوفياتي مباشر. «وأن أي عمل استباقي تقوم به إسرائيل سيجعل من المستحيل أن يقف أصدقاء إسرائيل إلى جانبكم».

أسهمت المراسلات هذه بإمالة الميزان في مجلس الوزراء عندما التأم ثانية مبكراً بعد ظهر يوم الأحد. فبدلاً من أن يسفر الاقتراع عن أكثرية ضئيلة لصالح الحرب، فإن الاقتراع غير الرسمي كشف عن طريق مسدود.

إذ صوت تسعة وزراء من حزبي NRP و Mapam على الأغلب، مع عضو من الحزب الليبرالي المستقل، وعضوين من الماباي (Mapai) ضد القيام بضربة استباقية، وتسعة وزراء بمن فيهم رئيس الوزراء دعموا الضربة الاستباقية، فنصح جميع الحاضرين، ما عدا كارمل، بمتابعة المحادثات مع الأمريكيين.

أنهت الحكومة دورتها باتخاذ قرار بالانتظار لمدة ثلاثة أسابيع لإتاحة الفرصة للولايات المتحدة بأن تعمل على تنفيذ وعدها، وللإفادة من الوقت لكسب تعاطف دولي مع إسرائيل، وجمع مزيد من المال، وشراء أسلحة؛ وفي غضون ذلك لا يقدم أي طلب بإعادة بناء قوات الطوارئ الدولية، ولا تقوم إسرائيل بإعادة دراسة إحياء الهدنة حتى يعود الوضع القائم في سيناء إلى ما كان عليه وتوقف مصر جميع أنواع الحصار. وينبغي إصدار بلاغ رسمي يؤكد أن إسرائيل تنظر إلى إغلاق المضائق بوصفه عملاً عدوانياً، وسوف تدافع إسرائيل عن نفسها ضده، في الوقت المناسب، في ممارسة لحقها في الدفاع عن النفس كبقية دول العالم».

أما رابين فقد أحبط بمرارة. وعبر عن ذلك بقوله: «أنا متأكد أننا سنجد أنفسنا بعد ثلاثة أسابيع نواجه المشكلة ذاتها، بل تحت ظروف أقسى. يواجه جيش الدفاع الإسرائيلي الآن أكبر تحد: البقاء مستنفراً بدون عمل». كذلك ألون كان يعتقد أن إسرائيل قد فوَّتت الفرصة عسكرياً وسياسيا». بيد أن نصف مجلس الوزراء كان يرى غير ذلك. ويبدو أن زالمان أران قد تحدث باسم هذا النصف عندما قال: «لم أكن متأكداً من أن الدبلوماسية ستمنع حرباً ليس لدي أية أوهام. ولكن إن كانت هناك فرصة واحدة فعلينا أن نجدها. لن تهرب الحرب والنشاط الدبلوماسي مستمر. وليس عبد الناصر هو الشخص الوحيد الذي يستطيع استثمار الوقت». (١١٤)

لقد تم تلافي الحرب في أضيق الهوامش - فإن حرباً، سواء بدأتها مصر أم إسرائيل في تلك المرحلة سوف تغير جذريا تاريخ منطقة الشرق الأوسط التالي لها. لقد بدا أن الأزمة قد بلغت ذروتها بقرار عبد الناصر ألا يبدأ الضربة الأولى، وباتباع إسرائيل له على الفور. إذ التزم الطرفان، بدرجات مختلفة، باستكشاف الحلول غير العنيفة.

وجاءت الخطوة الأولى في اتجاه حل كهذا بتقرير يوتانت في ٢٧ مايو بعد طول انتظار. وعلى الرغم من أن أكثر من نصف تقريره كان مكرساً لتسويغ تصرفه بشأن قوات الطوارئ الدولية (كان لدي أسباب وجيهة لأقتنع بأن الجمهورية العربية المتحدة كانت جادة في طلبها سحب القوات ومصممة على ذلك. «كما تضمن التقرير تأكيداً طويلاً على إحياء آلية الهدنة، فإن الأمين العام للأمم المتحدة قد وضع مفهومه لوقف الأنشطة العسكرية. إذ دعا جميع الفرقاء إلى ممارسة ضبط خاص ويمتنع عن العدوانية» وأشار إلى «خطوات محتملة.. لتخفيف حدة التوتر» وعنى بها تعيين وسيط للأمم المتحدة. قرر إشكول في إسرائيل تسريح ٤٠,٠٠٠ عسكري احتياط. وقال عبد الناصر إن لديه الآن «فرصة للتنفس» تمتد أسبوعين على الأقل يستطيع خلالها دراسة خياراته. (١١٥)

بيد أن الانطباع بوجود تخفيف للتوتر كان خادعاً. تجاهل قادة جيش الدفاع الإسرائيلي أوامر إشكول واستمروا في استدعاء الاحتياط، غضباً من قرار مجلس الوزراء بتأخير الضربة الاستباقية، ولعدم ثقتهم بالتزام أمريكا بمساعدة إسرائيل. شاعت في صفوف المراتب العسكرية العليا قناعة بأن الحكومة عاجزة عن معالجة حالة الطوارئ، ولا بد من إفاقتها من سباتها.

كما أن موقف رئيس الوزراء، المهزوز أصلاً، قد نسف عندما تلقى تحذيراً من واشنطن، أثناء استعداده لمخاطبة الكنيست. كانت ملاحظاته خالية من أية إشارة إلى اقتراح القافلة، ولا إلى موقف الولايات المتحدة الواضح وتصميمها القوي على إعادة فتح المضائق. حتى الطلب المتعلق بتشكيل لجنة ارتباط مع الولايات المتحدة، لم يحظ بالموافقة. (١١٦)

ومن جهة أخرى، عاد شمس بدران من موسكو منتصراً. إذ جذبه المارشال غريشكو (Grechko)، قبيل مغادرته، جانبا وقال له: «إذا دخلت أمريكا الحرب، فإننا سوف ندخلها إلى جانبكم». وقال إن الاتحاد السوفياتي قد أرسل مدمرات وغواصات إلى المياه قرب مصر، بعضها مسلح بالصواريخ وبعضها مزوّد «بأسلحة

سرية». وأردف قائلاً: «أريد أن أؤكد أنه إذا ما حصل أمر ما وكنتم بحاجتنا، أرسلوا لنا إشارة فقط. إذ سوف نسارع إلى مساعدتكم على الفور في بور سعيد وغيرها. «رغم أن هذا الإعلان كان من وجهة نظر الدبلوماسي صلاح بسيوني -مجرد تعبيرات روسية عادية صدرت أثناء احتساء الفودكا وتوديع بدران»- فقد زخرف كثيراً في راديو القاهرة عند إذاعته، ولم تفعل موسكو شيئاً لإنكاره أو التنصل منه، قال راديو القاهرة:

«إن الاتحاد السوفياتي، حكومة وجيشاً، سيقف إلى جانب العرب ويتابع دعمه وتشجيعه لهم بالقول إننا أصدقاؤكم الأوفياء، وسنظل كذلك. وسوف نتابع، نحن القوات المسلحة مساعدتكم لأن هذه هي سياسة الشعب السوفياتي وحزبه. باسم وزارة الدفاع وباسم الشعب السوفياتي نتمنى لكم النجاح والنصر ضد الصهونية الامبريالية. نحن معكم ونرغب في مساعدتكم في كل لحظة».

كان بدران، الذي أخَّر أعضاء وفد آخر عن تقديم تقرير حول حث كوسيغن للمصريين بالتزام الحذر، مقتنعاً أن مصر الآن لن تهزم. وقال متفاخراً إلى العديد من وزراء الحكومة: «إذا ما تدخل الأسطول السادس في صراعنا مع إسرائيل، فإن قاذفاتنا وزوارقنا. الصاروخية سوف تدمر أكبر ناقلاته. لدينا القوة لتحويله إلى علب سردين» وجاءت تأكديات لهذه التقديرات من الرئيس السوري، الأتاسي، الذي كان قد عاد من توه من زيارة خاصة إلى موسكو. وعلى الرغم من طلب السوفيات له بأن يمارس ضبط النفس، وأن يوقف غارات فتح في إسرائيل، فقد صرح بأن «الاتحاد السوفياتي وعد بالوقوف حازماً ضد أي عدوان إسرائيلي يتعرض له العرب».

لم يكن عبد الناصر بحاجة إلى مزيد من الإغراء. وقال سراً لزملائه من الضباط الأحرار:

«إن الرسالة التي وردت من كوسيغن تفيد بدعم الاتحاد السوفياتي لنا في هذه المعركة ولن يسمح لأية قوة بالتدخل إلى أن تعود الأمور إلى ما كانت عليه في العام ١٩٥٦». (١١٧)

تعززت ثقة مصر بالدعم السوفياتي بفضل الأحداث التي جرت في مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة. لقد تلقى فيديرينكو (Federenko) المندوب السوفياتي، الذي وصفه زملاؤه بأنه «لامع» و«خطيب حماسي»، من مواليد منشوريا،خبير بشؤون الشرق الأوسط، مولع بربطات العنق الفراشية، والغلايين، أوامر مشددة لمنع قبول أي قرار يمس مصر بأي أذى. وكان قبل ذلك قد سد الطريق على محاولات الدانمارك وكندا لإجراء مناقشات في الأمم المتحدة حول الشرق الأوسط منتهزاً تلك الفرصة ليهاجم رئيس مجلس الأمن التايواني، ليوتشي (Liu chieh).كما أجرى مقارنة سريعة بين إسرائيل والنازية.

كان أعضاء مجلس الأمن معتادين على مثل هذه الخطب النارية من فيديرينكو بيد أنهم لم يكونوا مستعدين لرفضه فكرة «إيقاف الأعمال العسكرية» التي طرحها يوتانت. قال فيديرينكو شارحاً الأمر: «لقد اصطنعت الأزمة برمتها من أجل الإساءة إلى العرب، وتبرير العدوان. إن الاتحاد السوفياتي لا يرى أسساً كافية لمثل هذا الاجتماع المتسرع لمجلس الأمن ولا إلى هذا الجو الدرامي الذي تغذيه القوى الغربية» وأبدى فيديرينكو أسباباً منطقية أخرى لرفض اقتراح فرنسا بعقد قمة رباعية للقوى الكبرى، وهو ما وافقت عليه بريطانيا والولايات المتحدة بحذر. ولدى بدء اجتماع لمجلس الأمن في ٢٨ مايو، غَيَّب فيديرينكو نفسه للتشاور. (١١٨)

ربما تهاجم فكرة تعليق الأعمال العسكرية من جهات أخرى كذلك - من إسرائيل مثلاً، الذي تراه موافقة من الأمم المتحدة على إثارة الحرب بصراحة، ومن الولايات المتحدة التي، ترفض فرض أي حظر على الشحنات المحظورة» عبر المضائق، رغم أنها تدعم إيقاف إرسال سفن إسرائيلية عبر المضائق. حتى إن المصريين أحبطوا في النهاية. إذ هرع محمد القوني بصورة هستيرية إلى مكتب يوثانت ليقول له: إن عبد الناصر لن يوافق أبداً على مرور النفط أو مواد استراتيجية أخرى عبر المضائق إلى إسرائيل حتى ولو على سفن أجنبية. وكان الأمين العام للأمم المتحدة قد انتهى من تسليم مذكرة إلى جدعون رفائيل، يطلب فيها من إشكول التأكد من «عدم عبور

أية سفينة ترفع العلم الإسرائيلي من مضائق تيران خلال الأسبوعين القادمين» ومع ذلك، عندما علم بالموقف المصري، أصدر تعليماته إلى بنش (Bunche) باسترجاع البرقية من رفائيل. ولم يقدم أي تفسير لذلك. (١١٩)

وهكذا، بدلاً من أن تمثل الأحداث التي جرت في اليوم الأخير من مايو انحسار التوتر، فإنها كانت مجرد إرجاء مؤقت للتوتر. إذ كانت الأزمة قد بدأت في واقع الأمر، وليس في ذروتها، كما سيبدو، بعد قليل، في الأردن البلد الذي انفجرت الأزمة حوله والذي نادراً ما سُمع منذ ذلك الحين.

obeikandl.com